هنري جيمس

ديزي مِلر

رواية

ترجمة: زكي الأسطة



ديزي ملر

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرواية :

DAISY MILLER . HENRY JAMES

* ديزي ملر .

* هنري جيمس .

* ترجمة : زكي الأسطة .

* الطبعة الأولى 1991 / 1000 .

* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع

اللاذقية — ص . ب 1018 — هاتف 22339 — سورية

هنري جيمس



رواية

ترجمة: زكي الأسطة

هنري جيمس

في

سطور

ولد هنري جيمس في الخامس عشر من نيسان عام 1843 في مدينة نيويورك .

كان والده عالم لاهوت بارزاً وفيلسوفاً لامعاً، وكان أخوه الأكبر، ويليام جيمس، عالم نفس وفيلسوفاً شهيراً أيضاً .

التحق هنري جيمس بالمدرسة في نيويورك ثم في لندن وباريس وجنيف إلى أنْ دخل كلية الحقوق في هارفارد عام 1862 .

بدأ يُقدّم مقالات نقدية وقصصاً قصيرة إلى المجلات والصحف في عام 1864 .

في أواخر عام 1875 استقر في باريس لمدة عام واحد، وهناك قابل تورغنيف و فلوبير و زولا، وهم من أشهر الشخصيات الأدبية آنذاك . وفي العام نفسه كتب روايته « الأمريكي » .

في كانون الأول من عام 1876 انتقل إلى لندن حيث أحرز بعد عامين شهرة طبقت الآفاق بروايته « ديزي مِلَر » الموجودة بين أيدينا .

في عام 1915 ، وقبل وفاته ببضعة أشهر، مُنِحَ الجنسية الإنكليزية، وفي كانون الثاني من عام 1916 منحه الملك جورج الخامس وسام الاستحقاق .

توفي هنري جيمس في مدينة لندن في شباط عام 1916 ، ودُفِنَ رماده في قطعة أرض تخص آل جيمس في مدينة كامبرج، ماساشوسيتس(الولايات المتحدة الأمريكية) .

من أشهر رواياته :

- رودريك هدسون(1876) .
- الأمريكي (1877) .
- ديزي ملر (1878) .
- الأوروبيون (1878) .
- ساحة واشنطن (1880) .
- صورة سيدة (1881) .

ـــ آهالي بوسطن (1886) .
ـــ الأميرة كازاماسيا (1886) .
ـــ جناحا اليمامة (1902) .
ـــ السفراء (1903) .
ـــ الزبدية الذهبية (1904) .

أما أشهر قصصه القصيرة فهي « دورة البرغي »(1898) . وتجدر الإشارة إلى أنَّ هنري جيمس خَلَّفَ عدداً من الكتب النقدية أشهرها « شعراء وروائيون فرنسيون » (1878)، و « ملاحظات عن روائيين » (1914)، وعدداً من كتب الرحلات أشهرها « المشهد الأمريكي » (1907)، كما خَلَّفَ كُتُبَ سيرة ذاتية، منها « ولد صغير وآخرون » (1913) .

1

في بلدة « فيفيه » الصغيرة، في سويسرة، ثمة فندق مريح على نحو واضح للعيان . ثمة، في الواقع، فنادق كثيرة، إذْ أنَّ استضافة السيَّاح هي مهنة هذا المكان الذي يقع، كما سيذكر الكثيرون من المسافرين، على حافة بحيرة زرقاء زرقة تلفت النظر، بحيرة يتوجب على كل سائح أن يزورها . ويعرض شاطئ البحيرة مجموعة متواصلة من المنشآت التي هي على هذه الشاكلة، ومن كل طبقة، بدءاً من « الفندق الفاخر » المُشَيَّدِ على أحدث طراز، بواجهة بيضاء بياض الطبشور، وبمئات الشرفات، وبدزينة من الأعلام الخفّاقة على سطحه، وانتهاءً بالبنسيون السويسريّ الصغير الذي يعود إلى الأيام الغابرة، وقد نُقِشَ اسمه بكتابة ألمانية المظهر على جدارٍ أصفر أو قرمزيّ وأُلحِقَ به نُزُلٌ صيفيٌّ غير ملائم في زاوية الحديقة . وقد اشتهر أحد هذه الفنادق الموجودة في بلدة « فيفيه » على أية حال، على الرغم من كونه كلاسيكي الطابع، بتميّزه عن كثير من جيرانه الجُدُد بجوّ من الرفاهية والنضج معاً . في هذه المنطقة، وفي شهر حزيران، يزداد عدد المسافرين الأمريكيين إلى حد كبير . ويمكن القول، في الواقع، أنَّ « فيفيه » تتخذ في هذه الفترة بعض خصائص منتجع

مائي أمريكي . ثمة مشاهد وأصواتٌ تستدعي إلى الذاكرة مشهد وصدى « نيوبورت » و « ساراتوغا » . وثمة رفرفة صبايا أنيقات هنا وهناك، وحفيف حواشي الفساتين المصنوعة من الموسلين(*)، وجلبة موسيقى الرقص في ساعات الصباح، وَوَقْعُ أصوات مرتفعة النبرات في جميع الأوقات . تتلقى انطباعاً عن هذه الأشياء في فندق « التيجان الثلاثة » الممتاز، وتنتقل في الخيال إلى« دار البحرية » أو « قاعة المؤتمرات » . بيد أننا يجب أنْ نضيفَ أنَّ ثمة ملامح أخرى في فندق « التيجان الثلاثة » تختلف إلى حد كبير عن هذه الإيحاءات : فثمة تُدُلٌّ ألمانيون أنيقو المظهر يبدون كأمناء سرٍّ في دار المفوضية، وأميرات روسيات يجلسن في الحديقة، وصبيان بولونيون صغار يتجولون في الجوار وقد أمسك بهم معلموهم الخصوصيون من أيديهم، ومنظر قمة جبل الجنوب المغطاة بالثلوج، وأبراج قلعة تشيلون الرائعة .

ولا أكاد أعرف فيما إذا كانت التشابهات أم الاختلافات هي التي احتلت المقام الأول في مخيلة شاب أمريكي كان يجلس، قبل سنتين أو ثلاث سنوات خلت، في حديقة فندق « التيجان الثلاثة » وهو يجيل الطرف حوله، على نحو متكاسل إلى حد ما، في بعض الأشياء الجميلة التي ذكرتها . كان صباحاً صيفياً جميلاً، ولا بد أن هذه الأشياء كانت تبدو فاتنة لهذا الشاب الأمريكي أياً كانت الطريقة التي راح ينظر بها إليها . كان قد أتى من « جنيف » في اليوم السابق، على متن السفينة البخارية الصغيرة، ليرى عمته المقيمة في الفندق، وكانت جنيف مقر إقامته لفترة طويلة من الزمن . بيد أن عمته كانت تعاني من صداع في الرأس ــ وعمته تعاني دائماً تقريباً من صداع في الرأس ــ وكانت الآن قد أغلقت غرفتها على نفسها، وراحت تستنشق الكافور، بحيث صار حراً الآن في أن يجول في المكان . كان في حوالي السابعة والعشرين من عمره . عندما كان أصدقاؤه يتحدثون عنه، كانوا عادة يقولون أنه كان

(*) الموسلين : نسيج قطني رقيق . المترجم .

في جنيف من أجل « الدراسة » . أما عندما كان أعداؤه يتحدثون عنه، كانوا يقولون ... ولكن، قبل كل شيء، لم يكن لديه أعداء، إذ كان شخصاً لطيف المعشر إلى حد كبير، ومحبوباً على وجه العموم . ما يتعيَّن عليَّ أن أقوله ببساطة، هو أنه عندما كان أشخاص معينون يتحدثون عنه، كانوا يؤكدون أن سبب قضائه وقتاً طويلاً في جنيف هو أنه كان قد كرَّس نفسه إلى حد كبير لسيدة كانت تعيش هناك ــ سيدة أجنبية ــ وكانت أكبر منه سناً . كان عدد قليل جداً من الأمريكيين ــ وإن كنت في الواقع لا أعتقد أن أحداً منهم ــ قد رأى قط هذه السيدة، التي نُسجت حولها بعض القصص الغريبة . ولكن مودة قديمة كانت تربط السيد وينتربورن بعاصمة « الكالفينية »[*] الصغيرة هذه . كان قد أُلحِق بمدرسة هناك وهو صبي، والتحق بعد ذلك بكلية هناك، وكانت هذه الظروف قد دفعت به إلى تشكيل الكثير من الصداقات الشابة . وقد احتفظ بالعديد من هذه الصداقات التي كانت مصدر رضى كبير بالنسبة إليه .

بعد أن قرع باب عمته وعلم أنها كانت متوعكة الصحة، قام بنزهة حول البلدة، ثم دخل ليتناول فطوره . كان الآن قد أنهى فطوره، ولكنه راح يرتشف فنجاناً صغيراً من القهوة قدَّمه إليه نادل، كان يبدو كملحق في سفارة، على طاولة صغيرة في الحديقة . وأخيراً أنهى قهوته، وأشعل سيجارة . وجاء الآن صبي صغير وهو يتمشى على طول الدرب، صبي في التاسعة أو العاشرة من عمره . وكان لهذا الطفل، الذي بدا صغيراً جداً بالنسبة لسنوات عمره، سيماء رزانة الشيخوخة، وبشرة شاحبة، وملامح صغيرة حادة . كان يرتدي بنطالاً قصيراً مزموماً عند الركبتين، وجوارب حمراً كانت تظهر ساقيه الطويلتين المهزولتين الصغيرتين المسكينتين .

(*) الكالفينية : مذهب يقول بأن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته، وصاحب هذا المذهب هو اللاهوتي الفرنسي البروتستانتي كالفين (1509 – 1564) . المترجم .

كان يرتدي أيضاً ربطة عنق حمراء لامعة، ويحمل في يده عصا طويلة في أسفلها حديدة مستدقة الرأس، راح يقحمها في كل شيء كان يقترب منه : أصص الأزهار، ومقاعد الحديقة، وأطراف فساتين السيدات . توقف امام وينتربورن وهو ينظر إليه بعينين صغيرتين ثاقبتين لامعتين . سأله بصوت صغير قاس وحاد، بصوت كان فجاً ولكنه، مع ذلك، لم يكن صوتاً فتياً إلى حد ما :

ــ هلاّ أعطيتني قطعة سكر؟؟؟

ألقى وينتربورن نظرة خاطفة على الطاولة الصغيرة الموجودة بقربه والتي استقر عليها طقم قهوته ورأى أن عدة قطع من السكر قد تبقت . أجاب :

ــ أجل يمكنك أن تأخذ قطعة، ولكنني لا أعتقد، أن السكر يفيد الصبيان الصغار .

فتقدم هذا الصبي الصغير إلى الأمام وانتقى بعناية ثلاثاً من القطع المشتهاة، دفن اثنتين منها في جيب بنطاله القصير الفضفاض، وأودع الثالثة بالسرعة نفسها في مكان آخر . ودسَّ عصاه ذات الطراز الرمحي في مقعد ونتربورن، وحاول أن يسحق قطعة السكر بأسنانه . هتف قائلاً :

ــ أوه، يا للجحيم . إنها قاسية .

كان يلفظ الصفة بطريقة غريبة .

وأدرك ونتربورن في الحال أن قد يحظى بشرف الادعاء بأن هذا الصبي ريفي . قال على نحو أبوي :

ــ إحذر أن تؤذي أسنانك .

ــ لا أسنان لدي لأؤذيها . لقد ظهرت كلها . أصبح لدي سبعة أسنان فقط . لقد أحصتها أمي الليلة الماضية، وظهر لي سن بعد ذلك مباشرة . قالت أنها سوف تصفعني إذا ظهر لي أي سن آخر . وليس في مقدوري أن أحول دون ذلك . إنها أوروبا العجوز هذه . إن المناخ هو الذي يجعلها تظهر . لم تظهر أسناني في أمريكا .

إن هذه الفنادق هي السبب .

وشعر ونتربورن بالاستمتاع كثيراً . قال :

ـــ إذا أكلت ثلاث قطع من السكر فسوف تصفعك أمك حتماً .

أجاب محادثه الصغير :

ـــ سوف يتحتّم عليها أن تعطيني بعض الحلوى إذن . لا أستطيع الحصول على أية حلوى هنا، أية حلوى أمريكية . إن الحلوى الأمريكية هي أفضل حلوى .

سأله ونتر بورن :

ـــ وهل الصبيان الأمريكيون الصغار هم أفضل الصبيان ؟؟؟

قال الطفل :

ـــ لا أعرف . أنا صبي أمريكي .

ضحك ونتربورن قائلاً :

ـــ أرى أنك واحد من أفضل الصبيان .

فتابع هذا الطفل النشيط قائلاً :

ـــ هل أنت رجل أمريكي ؟؟؟

ثم صرح قائلاً بعد أن سمع ردّ ونتربورن الإيجابي :

ـــ الرجال الأمريكيون هم أفضل الرجال .

فشكره صاحبه على هذا الإطراء، ووقف الطفل الذي باعد ساقيه فوق عصاه الآن، وهو ينظر حوله فيما راح يهاجم قطعة ثانية من السكر . وتساءل وينتربورن فيما إذا كان هو نفسه مثل هذا الطفل في طفولته، إذ أنّه كان قد جيء به إلى أوروبا في مثل هذه السن تقريباً .

وفي غضون لحظة صاح الطفل قائلاً :

ـــ ها هي اختي قادمة . إنها فتاة أمريكية .

ونظر وينتربورن على طول الدرب فرأى سيدة شابة جميلة تتقدم . قال في ابتهاج

لصاحبه الصغير :

ـــ الفتيات الأمريكيات هن أفضل الفتيات .

فصرح الطفل قائلاً :

ليست أختي أفضل فتاة . إنها توبخني دائماً .

قال وينتربورن :

ـــ يُخَيَّلُ لي أنَّ الخطأ خطأك وليس خطأها .

كانت السيدة الشـابة قد اقتربت في هذه الأثنـاء . كانت ترتدي فستاناً من الموسلين الأبيض، بمائة كشكش وهدب وعقدة من شريط باهت اللون . كانت حاسرة الرأس بَيْدَ أنّها كانت توازن في يدها مظلة نسائية كبيرة بكنار عميق من الزخرفة، وكانت جميلة على نحو يسحر الألباب ويأخذ بمجامع القلوب . وفكر وينتربورن قائلاً في قرارة نفسه وهو يعتدل في مقعده وكأنه يتهيأ للوقوف : « كم هن جميلات ! » .

توقفت السيدة الجميلة أمام مقعده قرب سور الحديقة الذي كان يطل على البحيرة . كان الفتى الصغير قد حَوَّلَ عصاه الآن إلى زانة للوثب، راح يقفز بمعونتها فوق الحصى مرتفعاً بها إلى حد لم يكن قليلاً . قالت السيدة الشابة :

ـــ راندولف ! ماذا تفعل؟؟

أجاب راندولف :

ـــ إنني أتسلق جبال الألب . وهذه هي الطريقة .

وقام بقفزة صغيرة أخرى جعلت الحصى تتناثر قرب أذني وينتربورن . قال وينتربورن :

ـــ وتلك هي الطريقة التي ينحدرون بها .

صاح راندولف بصوته الصغير العالي :

ـــ إنه رجل أمريكي !

فلم تُعِرِ السيدة الشابة أيَّ اهتمام لهذا التصريح، بل نظرت مباشرة إلى أخيها، وقالت ببساطة :

ـــ حسناً . أعتقد أنه يحسن بك أن تهدأ .

بدا لوينتربورن أنه قد تم تقديمه بطريقة ما، فنهض وخطا ببطء نحو الفتاة الشابة وهو يقذف سيجارته بعيداً . قال بلطف شديد :

ـــ لقد قُمْتُ بالتعارف مع هذا الفتى الصغير .

لم يكن الشاب في جنيف، كما كان وينتربورن يدرك تماماً، حُرّاً في أن يتحدث إلى سيدة شابة غير متزوجة إلاَّ تحت وطأة ظروف معينة نادراً ما تحدث . ولكنْ، هنا في « فيفيه » أية ظروف يمكن أن تكون أفضل من هذه الظروف ؟؟؟ فتاة أمريكية جميلة تأتي وتقف أمامك في حديقة !

على كل حال، عندما سمعت هذه الفتاة الأمريكية الجميلة ملاحظة وينتربون، ألقت عليه نظرة عجلى ببساطة ثم أدارت رأسها ونظرت من فوق حاجز الحديقة إلى البحيرة والجبال المقابلة .

تساءل فيما إذا كان قد تمادى، بَيْدَ أنَّه قرر أنَّ ما يتحتم عليه هو أن يوغل في التقدم بدلاً من التراجع . وفيما كان يفكر في شيء آخر يقوله استدارت السيدة الشابة إلى الفتى الصغير مرة أخرى وقالت :

ـــ أود أن أعرف من أين حصلتَ على تلك العصا .

أجاب راندولف :

ـــ اشتريتها .

ـــ أنت لاتقصد أنْ تقول أنك سوف تأخذها إلى إيطاليا .

فصرح الطفل قائلاً :

ـــ بل سآخذها إلى إيطاليا .

ألقت الفتاة الشابة نظرة خاطفة على مقدمة فستانها، وسَوَّتْ عُقْدَةً أو اثنتين من

شريطها . ثم ركّزت بصرها على المشهد مرة أخرى . قالت بعد لحظة :

ــ حسناً . أعتقد أنه يحسن بك أن تتركها في مكان ما .

فسألها وينتربون بنبرة احترام عميق :

ــ هل ستذهبون إلى إيطاليا؟؟

رمقته السيدة الشابة بنظرة خاطفة مرة أخرى، وقالت :

ــ أجل يا سيدي .

ولم تَزِدْ على ذلك . فتابع وينتربورن قائلاً وقد ارتبك قليلاً :

ــ هل ستطيرون....أ....فوق « سيمبلون »؟؟

قالت :

ــ لا أعرف . أعتقد أنه جبل ما . ما هو الجبل الذي سنطير فوقه يا راندولف ؟؟؟

سألها الطفل :

ــ نطير إلى أين؟؟

قال وينتربورن مفسّراً :

ــ إلى إيطاليا .

قال راندولف :

ــ لا أعرف . لا أريد الذهاب إلى إيطاليا . أريد أن أذهب إلى أمريكا .

أجاب الشاب :

ــ أوه، إنَّ إيطاليا مكان جميل !..

سأله راندولف بصوت عالٍ :

ــ وهل يمكنك الحصول على حلوى هناك ؟؟

قالت أخته :

ــ لا آمل ذلك . أعتقد أنك حصلت على ما يكفي من الحلوى، وأمك تعتقد

ذلك أيضاً .

صاح الفتى وهو لايزال يقفز في المكان :

ـــ لم أحصل على حلوى منذ فترة طويلة للغاية، منذ مائة أسبوع .

تفحصت السيدة الشابة أهداب فستانها وسوّت شرائطها مرة أخرى، فخاطر وينتربورن الآن بإبداء ملاحظة عن جمال المنظر . لقد توقف عن الارتباك إذ بدأ يدرك أنها لم تكن هي نفسها مرتبكة على الأقل . لم يكن ثمة أية ذرة من التغير في بشرتها الفاتنة . لم تكن منزعجة، على ما يبدو بوضوح، ولم تكن مرتبكة . وإذا كانت تنظر في اتجاه آخر عندما كان يتحدث إليها بحيث تبدو وكأنها لا تسمعه بوضوح، فإن تلك كانت، ببساطة، عادتها، طريقتها . مع ذلك، عندما أخذ يتكلم أكثر قليلاً ويشير إلى بعض الأشياء التي تثير التشويق في المنظر، والتي كانت تجهلها تماماً على ما يبدو، بدأت شيئاً فشيئاً تَمُنُّ عليه بالمزيد من معونة نظراتها الخاطفة، ولاحظ إذ ذاك بأن هذه النظرات الخاطفة كانت مباشرة، لا أثر فيها للانكماش والنفور . ولم تكن، على أية حال، ما يمكن أن يُسمّى نظرات وقحة، إذ أن عيني الفتاة الشابة كانتا صافيتين وبريئتين على نحو غريب . كانتا عينين جميلتين على نحو رائع، وفي الواقع لم يكن وينتربورن قد رأى منذ زمن طويل ما هو أجمل من ملامح مواطنته الشقراء المتنوعة، بشرتها، أنفها، أذنيها، وأسنانها . كان مغرماً جداً بالجمال الأنثوي، وكان مدمناً على مراقبته وتحليله، وقد أبدى عدة ملاحظات فيما يتعلق بوجه هذه السيدة الشابة . لم يكن خالياً من التشويق على الإطلاق، ولكنه لم يكن معبراً تماماً . وعلى الرغم من نعومته البارزة اتهمه وينتربورن فكرياً ـــ وعلى نحو متسامح للغاية ـــ بالافتقار إلى اللمسة الأخيرة . كان يعتقد أنه من المحتمل جداً أن تكون أخت السيد راندولف عابثة . وكان على يقين من أن لها مزاجها الخاص . ولكن لم يكن ثمة سخرية أو تهكم في محياها الصغير الظاهري العذب والمتألق . وسرعان ما اتضح أنها كانت شديدة الميل إلى المحادثة . أخبرته أنهم سوف يذهبون إلى روما

لقضاء فصل الشتاء، هي وأمها وراندولف . وسألته فيما إذا كان « أمريكياً » أصيلاً، إذ ما كانت لتحسبه كذلك . لشدَّما مان يبدو ألمانياً، هذا ما قالته بعد قليل من التردد، لاسيما عندما كان يتحدث . أجاب وينتربورن ضاحكاً أنه قابل ألمانيين كانوا يتحدثون كالأمريكيين، ولكنه لم يقابل، حتى الآن على ما يتذكر، أمريكياً يتحدث كالألمان . ثم سألها فيما إذا كانت لن تشعر بمزيد من الراحة لو جلست على المقعد الذي تركه منذ قليل . أجابت أنها تحب الوقوف والتجوال، ولكنها جلست في الوقت الحالي . أخبرته أنها من ولاية نيويورك « إذا كنت تعرف أين تقع »، وعلم وينتربورن المزيد عنها بالقبض على أخيها الصغير وجعله يقف إلى جانبه بضع دقائق . قال :

ـــ أخبرني عن اسمك يا ولدي .

قال الفتى بحدَّة :

ـــ راندولف سي مِلَر . وسأخبرك عن اسمها .

وصوَّب عصاه إلى أخته . فقالت هذه السيدة الشابة بهدوء :

ـــ يحسن بك أن تنتظر حتى تُسأل .

قال وينتربورن :

ـــ لَشَدَّما أحب أن أعرف اسمك .

صاح الطفل :

ـــ اسمها ديزي ملر، ولكنَّ ذلك ليس هو اسمها الحقيقي . ليس ذلك هو اسمها على بطاقاتها .

قالت الآنسة ملر :

ـــ من المؤسف أنك لم تحصل على إحدى بطاقاتي .

تابع الفتى قائلاً :

ـــ إن اسمها الحقيقي هو آني بي مِلَرْ .

قالت أخته وهي تشير إلى وينتربورن :

ـــ اسأله عن اسمه .

ولكن راندولف بدا في غاية اللامبالاة عند هذه النقطة، وتابع التزويد بالمعلومات المتعلقة بعائلته هو . صرَّح قائلاً :

ـــ إن اسم أبي هو إزرا بي مِلَر . إنه ليس في أوروبا . إن والدي في مكان أفضل من أوروبا .

وخال وينتربورن للحظة أن هذه هي الطريقة التي تَعلَّمَ بها الطفل أن يشير إلى أن السيد ملر قد انتقل إلى عالم الثواب السماوي . ولكن راندولف أضاف قائلاً في الحال :

ـــ إن والدي في « شينيكتادي » . لقد حصل على عمل عظيم . والدي غني، هل تراهن ؟؟

فهتفت الآنسة ملر قائلة وهي تخفض مظلتها النسائية وتنظر إلى حافتها المطرزة :

ـــ حســـناً .

أطلق وينتربورن الآن سراح الطفل، الذي ابتعد وهو يجر عصاه على طول الدرب . قالت الفتاة الشابة :

ـــ إنه لا يحب أوروبا . إنه يريد العودة .

ـــ هل تعنين إلى « شينيكتادي » ؟؟

ـــ أجل . يريد الذهاب إلى البيت مباشرة . لم يقابل أي ولد هنا . ثمة ولد واحد هنا، ولكنه يتجول دائماً بصحبة مدرِّس . إنهم لا يسمحون له باللعب .

فتساءل وينتربورن قائلاً : أليس لأخيك أي مدرِّس ؟؟

ـــ لقد فكرت أمي في تأمين مدرس له لكي يسافر معنا . كان ثمة سيدة أخبرتها عن مدرس ممتاز، وهي سيدة أمريكية ـــ ربما كنت تعرفها ـــ إنها السيدة ساندرز . أعتقد أنها جاءت من بوسطن . أخبَرَتْها عن هذا المدرِّس، وفكرنا في إقناعه بالسفر والتجوال معنا . ولكن راندولف قال أنه لا يريد مدرِّساً يسافر متجولاً معنا . وقال

أنه لا يريد أن يأخذ دروساً عندما يكون في داخل سيارة . ونحن نقضي نصف وقتنا في السيارات . كان ثمة سيدة إنكليزية قابلناها داخل سيارة . أعتقد أن اسمها كان الآنسة فلدرستون . ربما كنت تعرفها . كانت تريد أن تعرف لماذا لا أقوم أنا بإعطاء راندولف دروساً، بإعطائه « تعليمات » كما كانت تسميها، أعتقد أن في مقدوره أن يعطيني تعليمات أكثر مما أستطيع أنا أن أعطيه . إنه ذكي للغاية .

قال وينتربورن :

ــ أجل . يبدو ذكياً جداً .

ــ سوف تقوم أمي بتأمين مدرس له حالما نصل إلى إيطاليا . هل يمكن الحصول على مدرِّسين أكفاء في إيطاليا ؟؟

قال وينتربورن :

ــ بل أكفاء جداً على ما أعتقد .

ــ وإلا ستبحث له عن مَدْرَسة . ينبغي أن يتعلم المزيد . إنه في التاسعة من عمره فحسب . سوف يذهب إلى الكلية .

وبهذه الطريقة تابعت الآنسة ملر حديثها عن شؤون عائلتها، وعن مواضيع أخرى . كانت تجلس هناك وقد طوت في حضنها يديها الجميلتين إلى حد بعيد والمزيَّنتين بخواتم شديدة اللمعان، وراحت عيناها الجميلتان تستقران على عيني وينتربورن تارة، وتجيلان الطرف في الحديقة، والناس الذين كانوا يمرون بهما، والمنظر الجميل تارة أخرى . راحت تتحدث إلى وينتربورن وكأنها كانت تعرفه منذ زمن طويل . وقد وجدت ذلك ممتعاً للغاية . لقد مرت سنوات كثيرة منذ أن سمع سيدة شابة تتحدث كثيراً بهذا القدْر . ويمكن القول عن هذه السيدة الشابة المجهولة التي جاءت وجلست بقربه على أحد المقاعد أنها كانت تثرثر . كانت في غاية الهدوء، وقد جلست في وضع ساكن فاتن، بيدَ أن شفتيها وعينيها كانت تتحرك باستمرار . كان صوتها ناعماً، رفيعاً، ومقبولاً، وكان أسلوبها اجتماعياً بلا ريب . وقد أعطت

وينـتربورن تـاريخاً عن تحركاتها ونواياها، وتحركات ونوايا أمهـا وأخيهـا في أوروبا، وعدّدت، على وجه الخصوص، الفنادق المتنوعة التي توقفوا فيها . قالت :

ــ سـألتني تلك السيدة الإنكليزية التي قابلناها في إحدى السيارات، الآنسة فلدرستون، فيما إذا لم نكن جميعاً نعيش في الفنادق في أوروبا . أخبرتها أنني لم أنزل قط في فنادق كثيرة كهذه في حياتي منذ أن أتيت إلى أوروبا . لم أرَ قط فنادق بهذه الكثرة، بل ليس ثمة شيء سوى الفنادق .

ولكن الآنسة ملر لم تُبدِ هذه الملاحظة بلهجة متبرمة . كانت تبدو في أفضل مزاج حيال كل شيء . أعلنت أن الفنادق كانت ممتازة حالما تتأقلم مع أساليبها، وأن أوروبا كانت في غاية العذوبة . ولم تكن خائبة الأمل ولو مثقال ذرة، وربما كان مرد ذلك إلى أنها كانت قد سمعت الكثير عنهـا من قبـل . وكان لديها دائماً أصـدقاء حميمون تواجدوا هناك مرات كثيرة . وكان لديها إذ ذاك فساتين كثيرة جداً وأشياء من باريس . وكانت كلمـا ارتدت فستاناً باريسياً شعرت وكأنها في أوروبا . قال وينتربورن :

ــ كان ذلك نوعاً من أنواع قبعة التمني(*) .

قالت الآنسة ملر دون أن تمتحن هذا التشابه :

ــ أجل . كان ذلك يجعلني دائماً أتمنى أن أكون هنا . ولكنني لم أكن في حاجة إلى القيام بذلك من أجل الفساتين . أنا على يقين من أنهم يرسلون جميع الفساتين الجميلة إلى أمريكا . ترى هنا أفظع الأشياء .

ثم تابعت قائلة :

ــ الشيء الوحيد الذي لا أحبه هنا هو المجالس . ليس ثمة أية مجالس هنا، أو إذا كانت ثمة أية مجالس فأنا لا أعرف أين تكمن . هل تعرف أنت ؟؟ أعتقد أن

(*) قبعة التمني : قبعة سحرية خرافية تلبي رغبات لابسها وتحقق أمنياته مهما تكن . المترجم .

ثمة مجالس ما في مكان ما، بيد أنني لم أرَ أثراً لها . أنا مولعة بالمجالس، وكنت دائماً أعقد الكثير منها، لا أقصد في « شينكتادي » فحسب، بل في نيويورك . اعتدت أن أذهب إلى نيويورك كل شتاء، ولديَّ فيها الكثير من المجالس، وقد تلقيت سبع عشرة دعوة للعشاء في الشتاء الماضي . ثلاثاً منها وجَّهها لي رجال .

وأردفت ديزي ملر قائلة :

ــ لدي أصدقاء في نيويورك أكثر مما لدي في « شينكتادي » لدي المزيد من الأصدقاء .

وتابعت بعد لحظة قائلة :

ــ والمزيد من الصديقات الشابات أيضاً .

توقفت عن الحديث مرة أخرى لمدة لحظة . كانت تنظر إلى وينتربورن بجمالها كله، بعينيها النشيطتين وابتسامتها الرقيقة والرتيبة إلى حد طفيف . قالت :

ــ لقد حظيت دائماً بقدر كبير من صحبة الرجال.

وشعر وينتربورن المسكين بالتسلية والارتباك، وكان مفتوناً بلا ريب . لم يكن قد سمع قط فتاة شابة تعبر عن نفسها بهذه الطريقة تماماً . أبداً، على الأقل، باستثناء الحالات التي كان يبدو فيها التفوه بمثل هذه الأمور ضرباً من الدليل الحاسم على انحلال في السلوك . ومع ذلك، هل كان يتحتم عليه أن يتهم الآنسة ديزي ملر بفساد السيرة الفعلية أو المحتملة كما يسمونها في جنيف ؟؟ أحسَّ أنه كان قد عاش في جنيف فترة طويلة جعلته يخسر الشيء الكثير . لقد أصبح غير معتاد على الطابع الأمريكي .

لم يقابل قط، في الحقيقة، ومنذ أن بلغ الرشد الكافي لتقييم الأمور، فتاة أمريكية شابة ذات طراز صريح جداً كهذه . كانت بالتأكيد فاتنة إلى حد كبير، ولكن كم كانت اجتماعية إلى حد لعين !.. هل كانت ببساطة مجرد فتاة جميلة من نيويورك ؟؟ هل كنَّ جميعاً على تلك الشاكلة، الفتيات الجميلات اللواتي كنَّ يتمتعن بقدر كبير

من صحبة الرجال ؟؟؟ أم أنها كانت أيضاً فتاة شابة ماكرة ومتهورة ومجردة من المبادئ الخلقية ؟؟؟ كان وينتربورن قد فقد غريزته في هذه الصدد، ولم يكن في مقدور عقله أن يسدي له يد العون .

كانت الآنسة ديزي ملر تبدو في غاية البراءة . كان عدد من الناس قد أخبره، قبل كل شيء، أن الفتيات الأمريكيات كنَّ في غاية البراءة، وكان آخرون قد أخبروه، قبل كل شيء، أنهنَّ لم يكُنَّ كذلك . وكان ميالاً إلى الاعتقاد بأن الآنسة ديزي ملر كانت فتاة عابثة، عابثة أمريكية جميلة . لم يكن حتى الآن قد أقام علاقة مع سيدات شابات من هذه الفئة . كان قد عرف، هنا في أوروبا، امرأتين أو ثلاثاً كنَّ أكبر سناً من الآنسة ديزي ملر، وقد تزوَّدْنَ، كرمى للهيبة والاحترام بأزواج . كنَّ على درجة من الغنج والدلال، وكنَّ نساء خطيرات مريعات، وكانت علاقة المرء بهنَّ عرضة لاتخاذ منحى خطير .

بيد أن هذه الفتاة الشابة لم تكن مغناجاً بذلك المعنى . كانت ساذجة إلى حد بعيد . كانت مجرد عابثة أمريكية جميلة . وكان وينتربورن شاكراً تقريباً لعثوره على الصيغة التي تنطبق على الآنسة ديزي ملر . أسند ظهره إلى الخلف في مقعده، وقال لنفسه أنها ذات أجمل أنف ساحر رآه في حياته قط . وتساءل ما هي الشروط والحدود النظامية لعلاقة المرء مع عابثة أمريكية جميلة . وأصبح واضحاً في الوقت الراهن أنه كان في طريقه إلى معرفة ذلك .

سألته الفتاة الشابة وهي تشير بمظلتها إلى أسوار قلعة تشيلون البعيدة المتلألئة :

ــ هل سبق لك أن زرت تلك القلعة القديمة ؟؟؟

قال وينتربورن :

ــ أجل . سابقاً، وأكثر من مرة . وأنت أيضاً زرتِها على ما أعتقد ؟

ــ كلا . لم نذهب إلى هناك . إنني أتحرق للذهاب إلى ذلك المكان . طبعاً أقصد الذهاب إلى هناك . لن أبرح هذا المكان قبل أن أرى تلك القلعة القديمة .

قال وينتربورن :

ــ إنها رحلة جميلة جداً، ومن السهل القيام بها . يمكنك الذهاب بالسيارة، كما تعرفين، أو يمكنك الذهاب بالسفينة البخارية الصغيرة .

قالت الآنسة ملر :

ــ تستطيع أن تذهب بالسيارة .

فوافق وينتربورن قائلاً :

ــ أجل، تستطيعين الذهاب بالسيارة .

وتابعت الفتاة الشابة قائلة :

ــ يقول مرافقنا أنها تأخذك مباشرة إلى القلعة . كنا سنذهب إلى هناك الأسبوع الماضي، ولكن أمي أصيبت بالإجهاد . إنها تعاني من سوء الهضم على نحو فظيع . قالت أنها لا تستطيع الذهاب . ولم يُرِدْ راندولف الذهاب أيضاً . يقول أنه لا يفكر كثيراً بالقلاع القديمة . ولكنني أعتقد أننا سوف نذهب هذا الأسبوع إذا استطعنا إقناع راندولف .

فتساءل وينتربورن مبتسماً :

ــ ألا يهتم أخوك بالآثار القديمة ؟؟

ــ يقول أنه لا يهتم كثيراًبالقلاع القديمة . إنه في التاسعة من عمره فحسب، وهو يريد أن يبقى في الفندق، وتخشى أمي أن تتركه بمفرده، ويرفض المرافق البقاء معه . لذا حُرمنا من الذهاب إلى أماكن كثيرة . ولكن الأمر سيكون في غاية السوء إذا لم نصعد إلى ذلك المكان . وأشارت الآنسة ملر مرة أخرى إلى قلعة تشيلون :

ــ أعتقد أنه يمكن تدبير الأمر . ألا تستطيعون إقناع شخص ما بالبقاء، إلى فترة الأصيل، مع راندولف ؟؟

نظرت الآنسة ملر إليه لحظة، ثم قالت بمنتهى الهدوء :

ــ أتمنى لو تبقى أنت معه !

تردد وينتربورن لحظة، ثم قال :

ــ لشدما أفضِّل الذهاب إلى تشيلون معك .

سألته الفتاة الشابة بالهدوء نفسه :

ــ معي ؟؟؟

لم تنهض وقد احمرّ وجهها خجلاً أو ارتباكاً كما كان يمكن لفتاة شابة من جنيف أن تفعل . ومع ذلك، اعتقد وينتربورن، وقد أدرك أنه تمادى كثيراً، أنها من المحتمل أن تكون قد تضايقت، فأجاب باحترام كبير :

ــ مع أمك .

ولكن كان يبدو أن جرأته واحترامه معاً تبددا مع الآنسة ديزي ملر . قالت :

ــ أعتقد أن أمي لن تذهب، قبل كل شيء، فهي لا تحب أن تستقل السيارة وتتجول في فترة الأصيل . ولكن هل تقصد حقاً ما قلته الآن للتو من أنك تود الصعود إلى هناك ؟؟

فصرح وينتربورن قائلاً :

ــ بأقصى ما في الأمر من جدية .

ــ إذن، يمكننا أن نتدبر الأمر . إذا بقيت أمي مع راندولف، فإنني أعتقد أن يوجينيو سوف يبقى .

فتساءل الشاب قائلاً :

ــ يوجينيو ؟؟

ــ يوجينيو هو مرافقنا، وهو لا يحب البقاء مع راندولف . إنه من أصعب الرجال الذين قابلتهم في حياتي إرضاءً . ولكنه مرافق رائع . أعتقد أنه سوف يبقى في البيت مع راندولف إذا بقيت أمي، وعندئذ يمكننا الذهاب إلى القلعة .

وفكر وينتربورن لحظة بكل ما في عقله من رجاحة ممكنة . إن كلمة « يمكننا »تعني فقط الآنسة ديزي ملر وهو نفسه . وبدا هذا البرنامج مقبولاً جداً إلى

درجة يصعب معها التصديق . وأحس وكأنه كان يتحتّم عليه أن يقبِّل يد السيدة الشابة . وكان من المحتمل أن يفعل ذلك، ويفسد المشروع تماماً، ولكن ظهر في هذه اللحظة شخص آخر من المحتمل أن يكون يوجينيو .

اقترب رجل طويل وسيم بسَبَلَةٍ(*) جليلة، يرتدي معطفاً صباحياً مخملياً وسلسلة ساعة ذهبية، من الآنسة ملر وهو ينظر بحدة إلى رفيقها . قالت الآنسة ملر بابتهاج غامر :

ــ أوه، يوجينيو !

كان يوجينيو قد نظر إلى وينتربورن من رأسه إلى قدمه، وانحنى الآن بوقار للسيدة الشابة . قال :

ــ يشرِّفني أن أخبر المدموزيل بأن الغداء على المائدة .

نهضت الآنسة ملر ببطء وقالت :

ــ اسمع يا يوجينيو . سأذهب إلى تلك القلعة القديمة بأية طريقة .

فتساءل المرافق قائلاً :

ــ إلى قلعة تشيلون يا مدموزيل ؟؟

وأضاف بنبرة صدمت وينتربورن لوقاحتها البالغة :

ــ هل قامت المدموزيل بالترتيبات ؟؟

وألقت نبرة يوجينيو بوضوح، وهذا ما أدركته الآنسة ملر حتى، ضوءاً ساخراً إلى حد طفيف على موقف الفتاة الشابة، فاستدارت إلى وينتربورن، وقد احمر وجهها من الخجل قليلاً، قليلاً جداً، وقالت :

ــ ألن تحنث بوعدك ؟؟

فاحتج قائلاً :

(*) السَّبَلَة : ذلك الجزء من اللحية، النامي على جانبي الوجه، أو على الذقن . المترجم .

ـــ لن أكون سعيداً حتى نذهب !...

تابعت قائلة :

ـــ وهل ستبقى في هذا الفندق؟؟ وهل أنت أمريكي حقاً ؟؟؟

ووقف المرافق ينظر إلى وينتربورن بروح عدوانية . واعتقد الشاب أنّ طريقة نظره تشكل إهانة للآنسة ملر على الأقل . كانت هذه النظرة توحي بإلصاق تهمة بها مفادها أنها « تلتقط » معارفها .

قال وهو يبتسم ويلمّح في حديثه إلى عمته :

ـــ سأحظى بشرف تقديمك إلى مَنْ سيخبرك بكل شيء عني .

قالت الآنسة ملر :

ـــ أوه، حسنا . سنذهب ذات يوم .

ومنحته ابتسامة واستدارت . طوت مظلتها النسائية، ومشت عائدة إلى الفندق بجانب يوجينيو .

ووقف وينتربورن وهو يلاحقها بنظراته، وعندما تحركت مبتعدة وهي تجر كشاكش فستانها الموسلين فوق الحصى قال في قرارة نفسه أنّ لها هيئة أميرة .

2

كان، على أية حال، قد تعهد بالقيام بما ثبت أنه فوق الاحتمال عندما وعد أن يقدم عمته، السيدة كوستيللو، إلى الآنسة ديزي ملر . وحالما تحسنت حالة السيدة السابقة من صداعها، قام على خدمتها في شقتها، وبعد الاستعلامات المناسبة عن صحتها، سألها فيما إذا كانت قد لاحظت في الفندق وجود عائلة أمريكية مؤلفة من أم، وابنة، وولد صغير، فقالت السيدة كوستيللو :

ـــ ومرافق؟؟ أوه، أجل . لقد لاحظتهم . لقد رأيتهم، وسمعتهم، وابتعدت عن طريقهم .

كانت السيدة كوستيللو أرملة موسرة، إنسانة ذات امتياز كبير، وكانت تردد باستمرار أنها لو لم تكن عرضة للصداع على هذا النحو المريع لتركت، ربما، انطباعاً أعمق على زمانها . كانت ذات وجه طويل وشاحب، وأنف مرتفع، ومقدار كبير من الشعر الأشيب اللافت للنظر إلى حَدّ بعيد، وكانت ترهقه بلفّات كبيرة مضغوطة، ولُفافات شعر فوق قمة رأسها . كان لديها ابنان تزوجا في نيويورك، وابن آخر كان الآن في أوروبا . وكان هذا الشاب يسلي نفسه في هامبورغ، وعلى الرغم من أنه كان في ترحال دائم، نادراً ما شوهد يزور أية مدينة خاصة في اللحظة التي كانت أمه تختارها لظهورها هناك . لذا كان ابن أخيها، الذي جاء إلى « فيفيه » خصيصاً ليراها، أكثر لطفاً من أولئك الذين كانوا أقرب إليها على حد قولها . كان قد تشرّبَ في جنيف فكرة مفادها أنّ على المرء أن يكون دائماً لطيفاً مع عمته . لم تكن السيدة كوستيللو قد رأته منذ سنوات كثيرة، وقد شعرتْ بسرور بالغ معه فأظهرتْ استحسانها بإدخاله في كثير من أسرار ذلك النفوذ الاجتماعي الذي كانت تمارسه في العاصمة الأمريكية كما أفْهَمَتْه . اعترفتْ أنها كانت مُتَفَنّجَةً(*) جدا، ولكنه لو كان حسن الاطلاع على نيويورك لرأى أنه يتحتم على المرء أنْ يكون متفنجا . كانت

(*)المتفنخ : من لا يختلط بمن يحسبهم دونه منزلة . المترجم .

صورتها عن تكوين مجتمع تلك المدينة المتسلسل بدقة، والذي قدمته له بأضواء مختلفة كثيرة، أخَّاذَةً على نحو شديد بالنسبة لخيال وينتربورن .

وأدرك في الحال، من لهجتها، أنَّ مكانة ديزي ملر في السلّم الاجتماعي كانت منخفضة . قال :

ــ أخشى ألاَّ يكون رأيك فيهم حسنا .

صرحت السيدة كوستيللو قائلة :

ــ إنهم وضعاء للغاية . إنهم من ذلك الصنف من الأمريكيين، الذي يؤدي المرء واجبه عندما لا... لايقبلهم .

قال الشاب :

ــ آه، ألا تقبلينهم؟؟؟

ــ لا أستطيع يا عزيزي فردريك . أتمنى لو استطيع، ولكنَّ ذلك ليس في مقدوري .

قال وينتربورن في الحال :

ــ الفتاة الشابة جميلة للغاية .

ــ طبعا جميلة، ولكنها وضيعة للغاية .

قال وينتربورن بعد لحظة تَوَقُّفٍ أخرى :

ــ إنني طبعاً أرى ما تقصدينه .

فتابعت عمته قائلة :

ــ إنَّ لها تلك النظرة الساحرة التي تتمتع بها جميع الأخريات . لاأستطيع أن أحزر من أين يلتقطنها، ثم إنها ترتدي فساتينها بطريقة تبلغ حدَّ الكمال، لا بل إنك لا تعرف إلى أي حد جميل ترتدي فساتينها . لا أستطيع أن أحزر من أين يحصلن على أذواقهن .

ــ ولكنها يا عمتي العزيزة ليست، قبل أي شيء، همجية من قبائل الكومانش(*) .
قالت السيدة كوستيللو :
ــ إنها فتاة تربطها بمرافق أمها علاقة حميمة .
فسألها الشاب قائلاً :
ــ علاقة حميمة مع المرافق ؟؟؟
ــ أوه، والأم سيئة مثلها تماماً . إنهما تعاملان المرافق كصديق حميم، كواحد من السادة . ولن أتعجَّب إن كان يتناول العشاء معهما . من المحتمل أنهما لم تقابلا قط رجلاً بهذا السلوك الحسن، وبمثل هذه الملابس الجميلة، وأشبه ما يكون بواحد من السادة . ومن المحتمل أنه يتطابق مع فكرة السيدة الشابة عن الكونت . إنه يجلس معهما في الحديقة عند المساء، وأعتقد أنه يدخن .

أصغى وينتربورن باهتمام إلى عمليات الفضح هذه، وقد ساعدته على اتخاذ قرار بصدد الآنسة ديزي . كانت طائشة نوعاً ما وعلى نحو جلي . قال :
ــ حسناً . لست مرافقاً، ولكن كانت فاتنة جداً في نظري .
قالت السيدة كوستيللو بوقار :
ــ كان يحسن بك أن تقول منذ البداية أنك تعرَّفْتَ عليها .
ــ لقد تقابلنا ببساطة في الحديقة، وتحدثنا قليلاً .
ــ بكل بساطة !... وبالله عليك ماذا قلت ؟؟
ــ قلت أنني سأبيح لنفسي أنْ أقدمها إلى عمتي الرائعة .
ــ أنا في غاية الامتنان لك .
قال وينتربورن :
ــ كان يتحتم عليَّ أنْ أضمن مقامي .

(*) الكومانش : قبيلة من قبائل الهنود الحمر . المترجم .

ـــ وبالله عليك، من سيضمن مقامها ؟؟؟

قال الشاب :

ـــ آه . أنت قاسية !... إنها فتاة ظريفة للغاية .

فقالت السيدة كوستيللو :

ـــ إنك لا تقول ذلك وكأنك تؤمن به .

ـــ إنها خام تماماً . ولكنها جميلة على نحو رائع، وباختصار : إنها ظريفة جداً . ولكي أثبت أنني أؤمن بذلك، فسوف آخذها الى قلعة تشيلون .

ـــ ستذهبان، أنتما الاثنان، إلى ذلك المكان معاً ؟؟ يتحتم عليَّ أن أقول أنَّ ذلك أثبت العكس تماماً . كم كان قد مضى على معرفتك بها، إن كان لي أنْ أسأل، عندما تشكَّل هذا المشروع الممتع ؟؟ لمْ تنقضِ أربع وعشرون ساعة بعدُ على وجودك هنا .

قال وينتربورن وهو يبتسم :

ـــ لقد عرفتها منذ نصف ساعة خلت .

صاحت السيدة كوستيللو :

ـــ يا إلهي ! يالها من فتاة مريعة !!..

وصمت ابن أخيها بضع لحظات، ثم راح يقول وعلى نحو جدي رغبة منه في معلومات موثوقة :

ـــ أنت فعلاً تعتقدين إذن، أنت فعلاً تعتقدين أنَّ ....

ولكنه توقف مرة أخرى . قالت عمته :

ـــ أعتقد ماذا يا سيدي ؟؟

ـــ أنها من ذلك الصنف من السيدات الشابات اللواتي يتوقعن أن يمضي بهنَّ رجل ما عاجلاً أم آجلاً ؟؟

ـــ ليست لدي أية فكرة عما تتوقع مثل هؤلاء السيدات الشابات من الرجل أن يفعل . ولكني أعتقد فعلاً أنه يحسن بك ألاَّ تتطفل مع الفتيات الأمريكيات

الصغيرات والخامّ، كما تدعوهنّ . لقد عشتَ فترة طويلة خارج البلاد، وسوف تتأكد من أنك سترتكب خطأ جسيماً، فأنت بريء للغاية .

قال وينتربورن وهو يبتسم ويفتل شاربه :

ــ لست بريئاً للغاية يا عمتي العزيزة .

ــ فأنت مذنب للغاية إذن ؟؟

تابع وينتربورن فتْلَ شاربه وهو يفكر ثم سألها في النهاية :

ــ ألن تدَعي الفتاة المسكينة تتعرف عليك إذن ؟؟

ــ هل ستذهب معك حقاً إلى قلعة تشيلون ؟؟؟

ــ اعتقد أنها فعلاً تعتزم ذلك .

قالت السيدة كوستيللو :

إذن يتحتم عليَّ يا عزيزي فريدريك أن أرفض شرف التعرف عليها . إنني امرأة مسنة، ولكنني، وشكراً للسماء، لست مسنة إلى الحد الذي يمكن أن أتلقى فيه صدمة .

فتساءل وينتربورن قائلاً :

ــ ولكن ألا يفعلنَ جميعاً هذه الأشياء، اقصد الفتيات الشابات في أمريكا ؟؟

حدَّقت فيه السيدة كوستيللو لحظة، ثم صرَّحت قائلة بضراوة :

ــ أود أن أرى حفيداتي يفعلن هذه الأشياء !...

ويبدو أن هذا التصريح ألقى بعض الضوء على الموضوع، إذ تذكر وينتربورن أنه كان قد سمع أن بنات عماته الجميلات في نيويورك كنَّ « عابثات مروِّعات » . فإذا كانت الآنسة ديزي ملر قد تجاوزت الإذن بالحرية المسموح به لهؤلاء السيدات الشابات، فمن المحتمل أن يتوقع المرء منها أيَّ شيء . كان وينتربورن يتحرق لرؤيتها مرة أخرى، وكان ما يثير حفيظته ضد نفسه هو أنه، غريزياً، لا يتحتم عليه أن يُعجَب بها على نحو منصف .

وعلى الرغم من أنه كان يتحرق لرؤيتها، لم يكن يعرف بالكاد ماذا يتحتم عليه أن يقول لها عن رفض عمته التعرف عليها . بيد أنه اكتشف، وبالسرعة الشافية، أنه لم يكن ثمة حاجة ماسة إلى التزام جانب الحذر مع الآنسة ديزي ملر . وجدها ذلك المساء في الحديقة تتجول في ضوء النجوم الدافئ ككائن خرافي كسول، وهي تُحَرِّكُ ذات اليمين وذات اليسار أضخم مروحة رآها في حياته . كانت الساعة العاشرة، وكان قد تناول العشاء مع عمته وجالسها منذ العشاء ثم استأذنها للتو بالانصراف حتى الغد . بدت الآنسة ديزي ملر في غاية السرور لرؤيته، وصرَّحت أن ذلك المساء كان أطول مساء مرَّ بها في حياتها . سألها :

ــ هل كنت بمفردك طوال الوقت ؟؟؟

أجابت :

ــ كنت أتجول في الجوار مع أمي . ولكنَّ أمي تسأم التجول .

ــ هل أوَتْ إلى فراشها ؟؟

قالت الفتاة الشابة :

ــ كلا . إنها لا تحب أن تذهب إلى الفراش، وهي لا تنام ثلاث ساعات حتى . تقول أنها لا تعرف كيف تعيش . إنها عصبية المزاج على نحو مريع، وأعتقد أنها تنام أكثر مما تفكر . لقد ذهبت إلى مكان ما أبحثاً عن راندولف . إنها تريد أن تحاول إقناعه بالذهاب إلى الفراش، وهو لا يحب أن يذهب إلى الفراش .

ــ دعينا نأمل أن تقنعه .

قالت الآنسة ديزي وهي تفتح مروحتها :

ــ سوف تتحدث إليه قدر استطاعتها، ولكنه يكره أن تتحدث إليه . ستحاول أن تجعل يوجينيو يتحدث إليه، ولكنه لا يخشى يوجينيو . إن يوجينيو مرافق رائع، ولكنه لا يستطيع أن يؤثر كثيراً على راندولف !.. لا أعتقد أنه سيذهب إلى الفراش قبل الحادية عشرة .

ويظهر أن سهر راندولف طال بانتصار، إذ تمشى وينتربورن في الجوار مع الفتاة بعض الوقت دون أن يقابلا أمها . تابعت رفيقته كلامها قائلة :

ـــ كنت أفتش عن تلك السيدة التي تريد أن تعرفني عليها . إنها عمتك .

ثم، عندما اعترف وينتربورن بالحقيقة وأبدى بعض الفضول لمعرفتها بذلك، قالت أنها كانت قد سمعت كل شيء عن السيدة كوستيللو من خادمة غرف النوم . كانت هادئة جداً، وعلى أتم ما يرام، وترتدي لفافات شفر بيضاً، ولا تتحدث إلى أحد، ولم تتناول العشاء قط على مائدة مضيف، ويصيبها صداع الرأس كل يومين . وقالت الآنسة ديزي وهي تثرثر معه بصوتها المرح الرفيع :

ـــ أعتقد أن ذلك الوصف جميل . الصداع وكل شيء . لشدَّما أريد أن أتعرف عليها . وأعرف تماماً ما ستكون عليه عمتك . أعرف أنه يتحتم عليَّ أن أحبها . ستكون متفنّجة جداً(*)، وأحب أن تكون السيدة متفنجة . وأنا أتحرَّق لأن أكون أنا نفسي متفنجة . حسناً، نحن، أنا وأمي، متفنجتان . نحن لا نتحدث إلى أي كان، أو لا يتحدث الآخرون إلينا . أعتقد أن الأمر سيَّان . على أية حال، يسرني للغاية أن أتعرف على عمتك .

كان وينتربورن مرتبكاً . قال :

ـــ ستكون في غاية السعادة، ولكنني أخشى أن تتدخل تلك الصداعات .

نظرت إليه الفتاة الشابة عبر الغسق، وقالت بعطف :

ـــ ولكنني لا أعتقد أنها تصاب بصداع الرأس كل يوم .

صمت وينتربورن لحظة، ثم أجاب في النهاية وهو لا يعرف ما يجب أن يقول :

ـــ ولكنها تخبرني أنها تصاب به كل يوم .

وتوقفت الآنسة ديزي ملر، ووقفت تنظر إليه . كان جمالها لايزال واضحاً في

(*) المتفنّج : مَن لا يختلط بمَنْ يحسبهم دونه منزلة أو ثروة . المترجم .

الظلام، وكانت تفتح وتغلق مروحتها الهائلة . وقالت فجأة :

ـــ إنها لا تريد أن تتعرف عليَّ !!... لماذا لا تقول ذلك ؟؟؟ لا داعيَ للخوف . أنا لست خائفة .

وأطلقت ضحكة صغيرة .

وخيل لوينتربورن أن ثمة رجفة في صوتها، وأثار ذلك مشاعره،وصدمَهُ ، وأصابه بالخزي، فقال محتجاً :

ـــ إنها لا تعرف أحداً، يا سيدتي الشابة العزيزة، والسبب صحتها البائسة .

وتابعت الفتاة الشابة سيرها بضع خطوات وهي لاتزال تضحك . كرَّرت قائلة :

ـــ لا داعيَ للخوف . ثم لماذا يتحتم عليها أن ترغب في التعرف علي ؟؟

ثم صمتت مرة أخرى . كانت على مقربة من حاجز الحديقة، وأمامها كانت تتراءى البحيرة المضاءة بالنجوم . كان ثمة لمعان غامض على سطح الماء، وعلى مبعدة كانت تتراءى أشكال جبال على نحو معتم . ونظرت ديزي ملر إلى المنظر الغامض، ثم أطلقت ضحكة صغيرة أخرى . قالت :

ـــ يا إلهي !... إنها متفنجة !!..

وتساءل وينتربورن فيما إذا كانت مشاعرها قد جُرحت على نحو جدِّي، وكاد أن يتمنى للحظة أن يكون إحساسها بالأذية بالغاً لكي يصبح من اللائق بالنسبة له أن يحاول طمأنتها ومؤاساتها .

وانتابه إحساس عارم بأنها ستكون قريبة المنال بنتيجة المؤاساة .

وشعر عندئذ، للحظة، أنه على أهبة الاستعداد للتضحية بعمته، من باب اللباقة في الحديث، والاعتراف بأنها متغطرسة وفظة، والتصريح بأنهما ليسا في حاجة إلى الاكتراث بها .

ولكن، وقبل أن تتسنى له فرصة تسليم نفسه إلى هذا المزيج الخطير من الكياسة

البالغة والعقوق، أطلقت السيدة الشابة وهي تواصل السير هتافاً بنبرة أخرى تماماً قائلة :

ــ حسناً . ها هي ذي أمي !... أعتقد أنها لم تفلح في إقناع راندولف بالذهاب إلى الفراش . وظهر طيف سيدة، على مبعدة منهما، باهتاً جداً في الظلام وهو يتقدم بحركة بطيئة مضطربة .

ولاح أنه توقف فجأة . سألها وينتربورن :

ــ هل أنت متأكدة من أنها أمك ؟؟ هل تستطيعين تمييزها في هذا الغسق الكثيف ؟؟؟

فصاحت الآنسة ديزي ملر وهي تطلق ضحكة :

ــ حسناً . أعتقد أنني أعرف أمي . لاسيما عندما تكون قد خلعت عليها شالي أيضاً !.. إنها دائماً ترتدي أشيائي .

وحامت السيدة المعنية، بعد أن توقفت عن التقدم، بغموض حول المكان الذي أوقفت فيه خطواتها .

قال وينتربورن :

ــ إن أمك لا تراك على ما أخشى .

وأضاف وهو يعتقد أن الدعابة مباحة مع الآنسة ملر :

ــ أو ربما، ربما تشعر بالذنب بخصوص شالك .

أجابت الفتاة الشابة بهدوء :

ــ أوه إنه شال قديم مريع . لقد أخبرتها أن في استطاعتها أن ترتديه . إنها لن تأتي إلى هنا لأنها تراك .

قال وينتربورن :

ــ آه، إذن من الأفضل أن أفارقك .

فألحّت الآنسة ديزي ملر عليه قائلة :

ــ أوه، كلا . هيا .

ــ أخشى ألاَّ يروق تنزُّهي معك لأمك .

فحدجته الآنسة ملر بنظرة جادة وقالت :

ــ إن الأمر لا يتعلق بي . بل بك، أي بها . حسناً، لا أعرف بمن يتعلق !... ولكن أمي لا تحب أياً من أصدقائي الرجال . إنها جبانة بكل ما للكلمة من معنى، وتثير هرجاً ومرجاً عندما أعرِّفها على رجل . بيد أني أعرِّفها عليهم دائماً تقريباً .

وأضافت الفتاة الشابة بصوتها الضعيف الناعم الرتيب غير المرنان :

ــ لا يتحتم عليَّ أن أعتقد أنني طبيعية إذا لم أعرِّف أمي على أصدقائي الرجال .

قال وينتربورن :

ــ ولكي تعرِّفيها عليَّ يجب عليك أن تعرفي اسمي .

وبدأ يلفظ اسمه . قالت رفيقته بضحكة :

ــ أوه يا عزيزي . لا أستطيع أن أقول كل ذلك .

ولكنهما كانا عندئذ قد وصلا إلى السيدة ملر، التي مشت عندما اقتربا منها إلى حاجز الحديقة واتكأت عليه، وراحت تنظر باهتمام مركَّز على البحيرة وأقد أدارت ظهرها لهما . قالت الفتاة الشابة في نبرة قرار :

ــ أمي !...

وهنا استدارت السيدة الكبرى . قالت الآنسة ديزي ملر وهي تقدم لها الشاب على نحو صريح وجميل للغاية :

ــ السيد وينتربورن .

كانت « وضيعة » كما قالت السيدة كوستيللو . ومع ذلك، أثار عجب وينتربورن أنها كانت، على وضاعتها، ذات حسن رقيق وفريد من نوعه . كانت أمها إنسانة ضئيلة البنية، أقرب إلى النحول، رشيقة الخطو، تائهة العين،وذات أنف صغير للغاية وجبهة عريضة يزينها مقدار من الشعر الهزيل المتجعد كثيراً . وكابنتها، كانت السيدة

ملر مفرطة الأناقة، وكانت تتدلى من أذنيها ماسّات كبيرة . وحسبما استطاع وينتربورن أن يلاحظ، لم تقم بتحيته وكانت بالتأكيد لا تنظر إليه .

كانت ديزي بقربها وهي تسحب شالها مباشرة . وتساءلت هذه السيدة الشابة قائلة :

ــ ماذا تفعلين وأنت تتسكعين هنا في الجوار ؟؟؟

ولكن، لم يكن ثمة قساوة في اللهجة كما يمكن أن يوحي اختيارها للكلمات . قالت أمها وهي تستدير باتجاه البحيرة مرة أخرى :

ــ لا أعرف.

فهتفت ديزي قائلة :

ــ لا يتحتم عليَّ أن أعتقد أنك تريدين ذلك الشال !...

أجابت أمها بضحكة صغيرة :

ــ حسناً، بل أريده .

سألتها الفتاة الشابة :

ــ هل أقنعت راندولف بالذهاب إلى الفراش ؟؟

قالت السيدة ملر برقّة بالغة :

ــ كلا . لم أستطع إغراءه . إنه يريد أن يتحدث إلى النادل، وهو يحب أن يتحدث إلى ذلك النادل .

فتابعت الفتاة الشابة حديثها قائلة :

ــ كنت أقول ذلك للسيد وينتربورن .

وخيِّل لأذن الرجل الشاب أن نبرتها تشير إلى أنها كانت تتلفظ باسمه طوال حياتها . قال وينتربورن :

ــ أوه . أجل . لقد حظيت بمتعة التعرف على ابنك .

كانت أم راندولف صامتة، وانعطفت باهتمامها إلى البحيرة . بيد أنها تحدثت

أخيراً . قالت :

ـــ إنني لا أفهمم كيف يعيش في الحقيقة !...

قالت ديزي ملر :

ـــ ليس الأمر بالغ السوء، على أية حال، كما كان في دوفر .

فسأل وينتربورن :

ـــ وماذا حدث في دوفر ؟؟

ـــ لم يكن يود الذهاب إلى الفراش إطلاقاً . أعتقد أنه كان يسهر طوال الليل في قاعة الاستقبال العامة . ولم يكن يتواجد في فراشه في الساعة الثانية عشرة . أعرف ذلك .

فصرَّحت السيدة ملر قائلة بتأكيد لطيف :

ـــ كانت الثانية عشرة والنصف .

سأل وينتربورن قائلاً :

ـــ هل ينام كثيراً في النهار ؟؟؟

أجابت ديزي :

ـــ أعتقد أنه لا ينام كثيراً .

قالت أمها :

ـــ أتمنى لو ينام كثيراً، ولكن الأمر يبدو وكأنه لا يستطيع ذلك .

فتابعت ديزي قائلة :

ـــ أعتقد أنه في غاية التعب .

ثم ساد الصمت بضع لحظات . قالت السيدة الكبرى الآن :

ـــ حسناً يا ديزي ملر . لا ينبغي أن أعتقد أنك تودين أن تتحدثي ضد أخيك بالذات .

قالت ديزي دون أن يكون ثمة حدَّة فعلاً في ردِّها السريع :

ـــ حسناً . إنه فعلاً متعِبٌ يا أماه .

فنبَّهتْها أمها قائلة :

ـــ إنه في التاسعة من عمره فحسب .

قالت الفتاة الشابة :

ـــ حسناً . لن يذهب إلى تلك القلعة . سأذهب إلى هناك مع السيد وينتربورن .

ولم تقدِّم أم ديزي أية إجابة إزاء هذا التصريح الذي تم الادلاء به برباطة جأش بالغة . وسلَّم وينتربورن جَدَلاً أنها استاءت على نحو عميق من الرحلة التي كانا يزمعان القيام بها، ولكنه قال في قرارة نفسه أنها كانت إنسانة بسيطة يسلس قيادُها بسهولة، وأن بضعة احتجاجات تراعي رغبات الآخرين سوف تذهب بحدَّة استيائها، فبدأ يقول :

ـــ أجل . لقد تلطَّفَت ابنتك وأتاحت لي شرف أن أكون دليلها .

فألصقت عينا السيدة ملر التائهتان نفسيهما، بنوع من سيماء الإعجاب، بديزي التي ابتعدت بضع خطوات، على أية حال، وهي تدندن لنفسها برقة . قالت أمها :

ـــ أعتقد أنكما ستذهبان بالسيارة .

قال وينتربورن :

ـــ أجل . أو بالمركب .

ردت السيدة ملر قائلة :

ـــ حسناً . طبعاً لا أعرف . لم أذهب قط إلى تلك القلعة .

قال وينتربورن وقد بدأ يشعر بعودة الطمأنينة فيما يتعلق بمعارضتها :

ـــ إنه لمن المؤسف أنك لن تذهبي .

ومع ذلك، كان على أهبة الاستعداد لاكتشاف أنها تعتزم مرافقة ابنتها كأمر طبيعي .

تابعت قائلة بمسحة من الثقة المتزايدة :

ــ لشَدَّ ما كنا نفكر بالذهاب، ولكن يبدو أننا لا نستطيع ذلك . طبعاً تريد ديزي أن تتجول . ولكن ثمة سيدة هنا، ولا أعرف اسمها، تقول أنها لا تعتقد أننا نود أن نشاهد قلاعاً هنا، بل يتحتم عليها أن تعتقد أننا نود الانتظار حتى نصل إلى إيطاليا . ويبدو أنه سيكون ثمة قِلاع كثيرة هناك .

وأضافت الآن قائلة :

ــ طبعاً نحن نريد أن نرى القلاع الرئيسية فحسب . لقد زرنا عدة قلاع في إنكلترا .

قال وينتربورن :

ــ آه . أجل !.. ثمة قلاع جميلة في إنكلترا . ولكن قلعة تشيلون، الموجودة هنا، جديرة بالمشاهدة إلى حد كبير .

قالت السيدة ملر في نبرة مشبعة بالإحساس بعظمة المشروع :

ــ حسناً . إن كانت ديزي تشعر أنها مستعدة لذلك، إذ يبدو وكأن ليس ثمة ما تعجز عن القيام به .

صرَّح وينتربورن قائلاً :

ــ أوه . أعتقد أنها سوف تستمتع بها .

وكان يزداد رغبة في التأكيد على أنه سوف يحظى بامتياز مصاحبة السيدة الشابة التي كانت لاتزال تتجول أمامهما وهي تغني بنعومة . وتساءل قائلاً :

ــ ألا تميلين يا سيدتي إلى القيام بهذه الرحلة بنفسك ؟؟؟

نظرت أم ديزي إليه شَزْراً، ثم تقدمت إلى الأمام في صمت . وبعدئذ قالت ببساطة :

ــ أعتقد أنه يحسن بها أن تذهب بمفردها .

وقال وينتربورن لنفسه أن هذا الطراز من الأمومة يختلف إلى حد كبير عن طراز

المشرفات على الأطفال اليَقِظات اللواتي كتَّلْنَ أنفسهن في طليعة العلاقات الاجتماعية في المدينة القديمة المظلمة القائمة على الطرف الآخر للبحيرة . وقطع عليه تأملاته سماع اسمه تنطقه بوضوح شديد ابنة السيدة ملر الجامحة . غمغمت ديزي قائلة :

ـــ السيد وينتربورن !...

قال الرجل الشاب :

ـــ آنستي !...

ـــ ألا تريد أن تأخذني في نزهة بالقارب ؟؟

سألها قائلاً :

ـــ الآن ؟؟؟

قالت ديزي :

ـــ طبعاً !...

فهتفت أمها قائلة :

ـــ عجباً يا آني ملر .

قال وينتربورن بحماسة :

ـــ ألتمس منك يا سيدتي أن تسمحي لها بالذهاب .

إذْ لم يكن قد استمتع من قبل بمشاعر توجيه قارب صغيرٍ حمولتُهُ فتاة شابة جميلة ونضرة المحيّا عبر ضوء نجوم الصيف .

قالت الأم :

ـــ لا أعتقد أنها تود ذلك . بل إني أعتقد أنها تفضِّل الرجوع إلى الفندق .

صرَّحت ديزي قائلة :

ـــ أنا على ثقة من أن السيد وينتربورن يريد أن يأخذني . إنه مخلص على نحو مريع .

ـــ سأجذف بك إلى تشيلون في ضوء النجوم .

قالت ديزي :

ـــ لا أصدِّق ذلك !..

وهتفت السيدة الكبرى مرة ثانية قائلة :

ـــ حسناً !!..

فتابعت ابنتها حديثها قائلة :

ـــ لم تتحدث إليَّ منذ نصف ساعة .

قال وينتربورن :

ـــ لقد كنت أُجري محادثة ممتعة للغاية مع أمك .

فكرَّرت ديزي قائلة :

ـــ حسناً . أريدك أن تأخذني في نزهة بالقارب .

كانوا قد توقفوا جميعاً، واستدارت وهي تنظر إلى وينتربورن . كانت ابتسامة فاتنة تكسو وجهها، وكانت عيناها الجميلتان تتلألآن، وكانت تؤرجح مروحتها الضخمة . لا . من المستحيل أن تكون أجمل من ذلك . هذا ما فكرَّ به وينتربورن في قرارة نفسه .

قال وهو يشير إلى درجات معينة كانت تنحدر من الحديقة إلى البحيرة :

ـــ ثمة نصف دزينة من الزوارق ترسو عند مكان الرسو ذلك . لو تكرَّمت عليَّ بشرف قبول ذراعي، فسوف نذهب ونختار واحداً منها .

وقفت ديزي هناك وهي تبتسم . أردفت رأسها إلى الوراء، وأطلقت ضحكة صغيرة خفيفة . ثم صرَّحت قائلة :

ـــ أحب أن يكون الرجل رسمياً متمسكاً بآداب السلوك .

ـــ أؤكد لك أنه طلب رسمي .

فتابعت قائلة :

ـــ كنت قد عقدت عزمي على أن أدفعك إلى قول شيء .

قال وينتربورن :

ــ ترين أن الأمر ليس صعباً للغاية، ولكنك تمازحينني على ما أخشى .

فقالت السيدة ملر برقّة بالغة :

ــ لا أعتقد ذلك يا سيدي .

قال للفتاة الشابة :

ــ إذن دعيني أجذّف بك قليلاً .

فصاحت ديزي قائلة :

ــ ما أجمل الطريقة التي تقول بها ذلك !!..

ــ وسيكون القيام به أجمل بكثير .

قالت ديزي :

ــ أجل . سيكون ذلك جميلاً .

بيد أنها لم تقم بأية حركة لمصاحبته، بل وقفت هناك وهي تضحك فحسب . وقاطعتها أمها قائلة :

ــ أعتقد أنه يحسن بك أن تعرفي كم هي الساعة الآن .

قال صوت، بلكنة أجنبية، تناهى من الظلام القريب :

ــ إنها الحادية عشرة يا سيدتي .

ورأى وينتربورن عندما استدار الشخصية المنمقة التي كانت تسهر على رعاية السيدتين .

كان قد اقترب للتو ظاهرياً . قالت ديزي :

ــ أوه . يوجينيو . سأخرج في نزهة بالقارب .

فانحنى يوجينيو قائلاً :

ــ في الساعة الحادية عشرة ليلاً يا مدموزيل ؟؟؟

ــ سأذهب مع السيد وينتربورن . في هذه الدقيقة بالذات .

قالت السيدة ملر للمرافق :

ــ أرجوك أخبرها أنها لا يمكن أن تقوم بذلك .

فصرَّح يوجينيو قائلاً :

ــ أعتقد أنه لا يحسن بك أن تخرجي في نزهة بالقارب يا مدموزيل .

وتمنى وينتربورن من السماء ألاَّ تكون هذه الفتاة الجميلة على صلة طيبة بمرافقها . ولكنه لم يقل شيئاً .

هتفت ديزي قائلة :

ــ أعتقد أنك لا تجد ذلك لائقاً !... إن يوجينيو لا يجد شيئاً لائقاً .

قال وينتربورن :

ــ أنا رهن إشارتك .

سأل يوجينيو السيدة ملر قائلاً :

ــ هل تعتزم المدموزيل الذهاب بمفردها ؟؟؟

أجابت أم ديزي :

ــ أوه . كلا . بل مع هذا السيد !...

نظر المرافق إلى وينتربورن لحظة، وخيِّل لهذا الأخير أنه كان يبتسم، ثم قال بوقار وهو ينحني :

ــ كما تشاء المدموزيل !...

قالت ديزي :

ــ أوه . كنت آمل أن تثيروا جلبة ولغطاً .. لا أبالي بالذهاب الآن .

قال وينتربورن :

ــ أنا الذي سأثير جلبة ولغطاً إذا لم تذهبي .

ــ ذلك هو كل ما أريده . جلبة صغيرة .

وبدأت الفتاة الشابة تضحك مرة أخرى . وصرَّح المرافق قائلاً بفتور :

ـــ لقد أوى السيد راندولف إلى فراشه .

قالت السيدة ملر :

ـــ أوه يا ديزي . يمكننا أن نذهب الآن .

واستدارت ديزي مبتعدة عن وينتربورن وهي تنظر إليه وتبتسم وتهوّي لنفسها بالمروحة . قالت :

ـــ تصبح على خير آمل أن تكون قد أصبتَ بخيبة أمل، أو باشمئزاز، أو ما شابه ذلك !!..

نظر إليها وهو يتناول اليد التي قدَّمتْها له، وأجاب :

ـــ أنا في حيرة من أمري .

قالت بذكاء شديد :

ـــ حسناً . آمل ألاّ تبقيك يقظاً .

وتحت حماية صاحب الامتياز يوجينيو مشت السيدتان باتجاه الفندق .

وقف وينتربورن يتابعهم بنظراته . كان في حيرة فعلاً . وأخذ يتسكع قرب البحيرة لمدة ربع ساعة وهو يفكر في لغز نزوات الفتاة الشابة المفاجئة وتقلباتها في الرأي . ولكن الاستنتاج الحتمي الوحيد الذي توصل إليه هو أنه يجب أن يتمتع إلى أبعد حد « بالخروج » معها إلى مكان ما .

بعد ذلك بيومين خرج معها إلى قلعة تشيلون . انتظرها في قاعة الفندق الضخمة حيث كان المرافقون والخدم والسياح الأجانب يتسكعون ويحدِّقون . لم يكن ليختار مثل هذا المكان، ولكنها هي التي كانت قد حدَّدته . نزلت إلى الطابق الأرضي بخطى رشيقة سريعة وهي تثبِّت أزرار قفّازيها الطويلين وتضغط مظلتها النسائية المطوية على جسمها الجميل، وقد ارتدت أتمَّ ما يكون عليه ثوب سفر أنيق، هادئ اللون .

كان وينتربورن رجلاً خيالياً، وكما اعتاد أسلافنا أن يقولوا، رقيق الشعور . عندما نظر إلى فستانها وخطوتها الواثقة السريعة الصغيرة على الدرج الكبير، شعر وكأن شيئاً

رومانسياً في سبيله إلى الحدوث . وكان في وسعه أن يحسب أنه سوف يفرُّ بها .

ومرَّ معها بين جميع الأشخاص المتبطلين الذين كانوا يتجمعون هناك، وراح الجميع ينظرون إليها بإمعان شديد . كانت قد بدأت تثرثر فور انضمامها إليه . كان وينتربورن يفضِّل أن ينتقلا إلى تشيلون في عربة، ولكنها أعربت عن رغبة حيوية في الذهاب بالمركب البخاري الصغير . صرَّحت أن لديها شغفاً بالمراكب البخارية .

كان ثمة دائماً نسيم عليل كهذا على سطح الماء، وكنتَ ترى مثل هذه الأعداد الكبيرة من الناس .

لم تكن الرحلة البحرية طويلة، ولكنَّ رفيقةَ وينتربورن وجدت الوقت الكافي لتقول أشياء كثيرة جداً . كانت رحلتها الصغيرة في نظر الرجل الشاب نفسه عملاً طائشاً إلى حد كبير، مغامرةً، وكان يتوقع أن يراها تنظر إلى الأمر بالطريقة نفسها حتى لو وضعنا في الحسبان إحساسها الاعتياديّ بالحرية . ولكنْ، ينبغي الاعتراف أنه أُصيبَ بخيبة أمل في هذه النقطة على وجه الخصوص . كانت ديزي ملر منبعثة النشاط إلى حد كبير، وكانت في مزاج فاتن، ولكنها لم تكن تشعر بالإثارة على الإطلاق ظاهرياً . لم تكن مرتبكة، ولم تتجنب عينيه، أو عيني أيٍّ شخص آخر . ولم يحمرّ وجهها عندما كانت تنظر إليه، أو عندما كانت ترى الناس ينظرون إليها .

واستمر الناس ينظرون إليها إلى حد كبير، وشعر وينتربورن برضى بالغ في سيماء رفيقته الجميلة المتميزة . كان يشعر بالخشية قليلاً من أن تتحدث بصوت مرتفع، وأن تضحك إلى حد كبير، أو أنْ ترغب على وجه الاحتمال حتى في التحرك داخل المركب تحرُّكاً لا بأس به . ولكنه نسي مخاوفه تماماً . جلس وهو يبتسم وعيناه على وجهها، فيما راحت، ودون أن تتحرك من مكانها، تحررّ نفسها من عدد كبير من الأفكار الأصلية . وكانت تلك هي أجمل ثرثرة سمعها في حياته . كان قد وافق على فكرة أنها « وضيعة ». ولكنْ، هل كانت كذلك فعلاً، أم أنه كان ببساطة قد بدأ يعتاد على وضاعتها ؟؟؟ كانت أحاديثها باختصار من النوع الذي يسميه علماء ما

الطبيعة القالب الموضوعي، بَيْدَ أنها كانت بين الفينة والفينة تتخذ شكلاً شخصياً .

تساءلت فجأة وهي تثبِّت عينيها المتناغمتين على عيني وينتربورن :

ــ بالله عليك لِمَ أنت وقور إلى هذا الحد ؟؟؟

سألها قائلاً :

ــ هل أنا وقور ؟؟ كنت أعتقد أنني أبتسم ابتسامة عريضة من الأذن الى الأذن .

ــ تبدو وكأنك تصطحبني إلى جنازة . إذا كانت تلك ابتسامة عريضة، فلا شك في أنَّ أذنيك قريبتان جداً من بعضهما .

ــ هل تريدينني أنْ أرقص الرقصة المزمارية(*) على سطح المركب ؟؟؟

ــ أتوسل إليك أن تفعل ذلك وسأدور أنا بقبعتك . ولسوف يغطي ذلك نفقات رحلتنا . غمغم وينتربورن قائلاً :

ــ لم أكن قط في حياتي أكثر سروراً مما أنا عليه في هذه اللحظة .

نظرت إليه لحظة ثم انفجرت بضحكة صغيرة قائلة :

ــ أحب أن أدفعك إلى قول تلك الأشياء . أنت مزيج غريب .

وفي القلعة، بعد أن هبطا من المركب، ساد العنصر الشخصي بلا جدال . انتقلت ديزي بخطى رشيقة بين الغرف المقنطرة، وحفَّت تنورتها بالدرج اللولبي، وأُجْفِلَتْ وارتَّدتْ إلى الخلف بصرخة صغيرة جميلة وارتعاشة عند حافة زنازين المحكومين بالسجن، وأعطت وأعارت أذناً صاغية حسنة التكوين على نحو فاتن لكل ما كان يخبرها به وينتربورن عن المكان . بَيْدَ أنه رأى أنها أولت الآثار الإقطاعية اهتماماً ضئيلاً للغاية، وأن تراث تشيلون السحيق لم يترك سوى انطباع طفيف عليها . وكان حظهما طيباً إذْ كان في وسعهما أن يتجوَّلا دون صحبة أخرى باستثناء

(*) الرقصة المزمارية : رقصة إنكليزية شعبية مرحة كانت تؤدَّى في الأصل على أنغام المزمار القرني، وهو آلة نفخ موسيقية قديمة . المترجم .

المشرف على المكان، وقد تدبر وينتربورن الأمر مع هذا الموظف على أنه لايتحتم عليهما الإسراع، وعلى أنهما ينبغي أن يتباطآ ويتوقفا حيث يشاءان . وقد فَسَّر المشرف على المكان الصفقة على نحو شهم ــ وكان وينتربورن شهماً من ناحيته ــ واختتم الأمر بتركهما بمفردهما تماماً . لم تكن ملاحظات الآنسة ملر تلفت النظر وذلك لافتقارها إلى التماسك المنطقي، إذ كان مقدَّراً عليها أن تجد ذريعة لكل ما كانت تريد أن تقوله . وقد وجدت ذرائع كثيرة للغاية في كِوى تشيلون الكالحة لتسأل وينتربورن أسئلة مفاجئة عن نفسه، وعن عائلته، وعن تاريخه السابق، عن ميوله، وعاداته ونواياه، ولتقوم بتقديم المعلومات عن النقاط المقابلة في شخصيتها . وفيما يتعلق بميولها وعاداتها ونواياها هي، كانت على أهبة الاستعداد لتقديم أوضح، وفي الواقع أنسب، تقرير . قالت لرفيقها بعد أن أخبرها بتاريخ بونيفارد البائس :

ــ حسناً . آمل أن تعرف ما فيه الكفاية . لم أقابل رجلاً قط كثير المعرفة إلى هذا الحد .

كان تاريخ بونيفارد قد دخل بوضوح في أذن وخرج من الأخرى، كما يقولون . ولكن ديزي تابعت قائلة أنها تتمنى لو يسافر وينتربورن معهم، و « يتجول معهم »، فقد يعرفون شيئاً ما في تلك الحالة . سألته :

ــ ألا تريد أن تأتي وتقوم بتدريس راندولف ؟؟؟

قال وينتربورن أنه لا يمكن لشيء على وجه الاحتمال أن يُدخِل إلى قلبه سروراً أكثر من ذلك، ولكن لديه لسوء الحظ مشاغل أخرى . قالت الآنسة ديزي :

ــ مشاغل أخرى ؟؟ لا أصدق ذلك !... ماذا تعني ؟؟؟ أنت غير مرتبط بعمل .

واعترف الرجل الشاب أنه لم يكن مرتبطاً بعمل، ولكن لديه ارتباطاتٍ سوف ترغمه، في غضون يوم أو اثنين حتى، على العودة إلى جنيف . قالت :

ــ أوه . تبّاً لذلك !.. أنا لا أصدِّق !..

وبدأت تتحدث عن أمر آخر . ولكنها، بعد بضع لحظات وبينا كان يلفت نظرها إلى جمال تصميم مستوقد أثري، اندلعت قائلة على نحو لا علاقة له بالموضوع :

—أنت لا تقصد أن تقول أنك سوف تعود إلى جنيف ؟؟؟

ـــ إنها لحقيقة كئيبة أنه سوف يتحتم علي أن أعود إلى جنيف غداً .

قالت ديزي :

ـــ حسناً يا سيد وينتربورن . أعتقد أنك بغيض .

قال وينتربورن :

ـــ أوه . لا تقولي مثل هذه الأشياء الفظيعة !.. وفي نهاية المطاف تماماً .

صاحت الفتاة الشابة قائلة :

ـــ نهاية المطاف !.. إنني أسميها البداية . تنتابني رغبة عارمة في أن أتركك هنا وأعود مباشرة إلى الفندق بمفردي .

وكان كل ما فعلته في الدقائق العشر التي تلت ذلك هو أنها راحت تدعوه بغيضاً . كان وينتربورن المسكين مرتبكاً نوعاً ما . لم يسبق لسيدة شابة حتى الآن أن خلعت عليه شرف إغاظتها بالإعلان عن تحركاته . وكفّت مرافقته بعد ذلك عن إيلاء أي اهتمام بعجائب تشيلون أو محاسن البحيرة . وفتحت النار على الفاتنة الغامضة الموجودة في جنيف، والتي يظهر أنها افترضت جدلاً وعلى الفور أنه يسرع عائداً لملاقاتها . كيف عرفت الآنسة ديزي ملر أنه كان ثمة فاتنة في جنيف ؟؟ كان وينتربورن، الذي أنكر وجود مثل هذه الإنسانة، عاجزاً عن اكتشاف ذلك . وكان مشتتاً بين الذهول لسرعة استنتاجها، وبين التسلي لصراحة استهزائها . وبدت له في كل هذا الأمر مزيجاً استثنائياً من البراءة والفجاجة . سألته ديزي بسخرية :

ـــ ألا تسمح لك أبداً بأكثر من ثلاثة أيام في المرة الواحدة ؟؟؟ ألا تعطيك إجازة في الصيف ؟؟؟ ليس ثمة من يعمل بجهد جهيد إلاَّ ويستطيع الحصول على إجازة

للذهاب إلى أي مكان في هذا الفصل . أعتقد أنك لو بقيت يوماً آخر، فستأتي في إثرك على متن قارب . انتظر حتى يوم الجمعة وسوف أنزل إلى رصيف الرسو وأراها وقد وصلت !..

وبدأ وينتربورن يعتقد أنه سيكون مخطئاً لو شعر بخيبة أمل إزاء الانفعال الذي باشرت به السيدة الشابة . إذا كان قد أخطأ النبرة الشخصية، فإن النبرة الشخصية كانت الآن تُبرِز وجودها . وقد تجلى ذلك بوضوح تام في النهاية عندما أخبرته أنها سوف تتوقف عن « تعذيبه » إذا وعدها بوقار أن يأتي إلى روما في الشتاء .

قال وينتربورن :

ـــ ليس من الصعب إعطاء مثل هذا الوعد . لقد أخذت عمتي شقة في روما لقضاء الشتاء . وقد سبق أن طلبت مني المجيء لرؤيتها .

قالت ديزي :

ـــ لا أريدك أن تأتي من أجل عمتك . أريدك أن تأتي من أجلي أنا .

وكانت تلك هي الإشـارة الوحيدة، التي كان يتحتّم على الرجل الشـاب أن يسمعها منها، إلى قريبته المثيرة للاستياء . صرح أنه سوف يأتي حتماً على أية حال . وبعد ذلك توقفت ديزي عن التعذيب .

أخذ وينتربورن عربة وعادا بها إلى « فيفيه » في الغسق . كانت الفتاة الشـابة هادئة تماماً .

وفي المساء ذكر وينتربورن للسيدة كوستيللو أنه أمضى فترة الأصيل في تشيلون مع الآنسة ديزي ميلر . سألته هذه السيدة قائلة :

ـــ الأمريكية ؟؟ .. ذات المرافق ؟؟؟

قال وينتربورن :

ـــ آه . لحسن الحظ أن المرافق بقي في الفندق .

ـــ وذهبت معك بمفردها تماماً ؟؟؟

ــ بمفردها تماماً .

وتنشقت السيدة كوستيللو قليلاً من زجاجة الاستنشاق . وهتفت قائلة :

ــ وتلك هي الإنسانة الشابة التي كنت تريدني أن أتعرف عليها !!!...

3

ذهب وينــتربورن، الذي كان قد عاد إلى جنيف في اليوم التـالي لرحلتـه إلى تشيلون، إلى روما قرابة أواخر كانون الثاني . كانت عمته قد استقرت هناك منذ عدة أسابيع، وكان قد تلقى منها رسالتين . كتبت له قائلة : (لقد ظهر هنا أولئك القوم الذين كنت تُصـفيهــم خـالص المـودة في « فيفيــه » في الصيف المنصرم، المرافق والجميع) .

(يبدو أنهم أقاموا عدة علاقات تعـارف، بيد أن المرافق لايزال يشغـل المقـام الأول . والسيدة الشابة، على أية حال، على علاقة حميمة مع إيطالي من الدرجة الثالثة، وهي تتسكع معه بطريقة تثير الكثير من الأقاويل . أحضر لي معك تلك الرواية الجميلة « بول ميريه » التي كتبها « تشيربوليبه »، ولا تتأخر في الحضور إلى ما بعد 23 الشهر الجاري) .

وتمشياً مع مجرى الأحداث الطبيعي، لا بد وأن وينتربورن، لدى وصوله إلى روما، سوف يتحقق في مصرف « أميريكان بانكر » من عنوان السيدة ملر، ويذهب ليقدم تحياته للآنسة ديزي .

قال للسيدة كوستيللو :

ـــ أعتقد وبالتأكيد أن في إمكاني أن أزورهم بعدما حدث في « فيفيه » .

ـــ إذا كنت ترغب، بعدما حدث ويحدث في « فيفيه » وفي كل مكان أن تحافظ على معرفتك بهم، فأنت على الرحب والسعة إلى حد كبير . طبعاً يستطيع الرجل أن يتعرف على أي كان . أهلاً بالرجال القادمين إلى الامتياز !...

سألها وينتربورن قائلاً :

ـــ أتوسل إليك أن تخبرني ما الذي يحدث، هنا على سبيل المثال ؟؟

ـــ تتجول الفتاة مع غربائها بمفردها . أما ما يحدث بعد ذلك، فعليك أن تحصل

على معلوماتك من مصدر آخر . لقد التقطت نصف دزينة من متصيِّدي الثراء النظاميين الرومانيين، وهي تصطحبهم إلى منازل الناس . وعندما تأتي إلى حفل ما تحضر معها سيداً على قدر كبير من الأناقة وذا شارب رائع .

ــ وأين الأم ؟؟؟

ــ ليست لدي أدنى فكرة . إنهم قوم مريعون إلى حد كبير .

وفكر وينتربورن لحظة في الأمر وقال :

ــ إنهم على قدر كبير من الجهل، وهم أبرياء جداً فحسب . ثقي بذلك : ليسوا سيئين .

قالت السيدة كوستيللو :

ــ إنهم سوقيون إلى درجة ميؤوس منها . أما فيما إذا كان، أم لم يكن، من هو سوقي « سيئاً » أم لا، فهذه مسألة تخص علماء ما وراء الطبيعة . إنهم سيئون إلى درجة تكفي لأن تجعل المرء يكرههم على أية حال . وهذا كافٍ في حد ذاته في هذه الحياة القصيرة .

وكبحت الأنباء، التي أفادت بأن ديزي ملر كانت محاطة بنصف دزينة من الشوارب الرائعة، اندفاع وينتربورن للذهاب مباشرة ومقابلتها . لم يكن قد أقنع نفسه على نحو واضح، ربما، بأنه قد ترك انطباعاً في قلبها يتعذر محوه، ولكن ما أزعجه كان سماع حالة من الفضائح تكاد لا تتماشى مع صورة كانت قد رفرفت مؤخراً داخل وخارج تأملاته الخاصة، صورة فتاة جميلة للغاية تطل من نافذة رومانية قديمة وتسأل نفسها بإلحاح متى سيصل السيد وينتربورن . ولما كان قد قرر، على أية حال أن ينتظر قليلاً قبل أن يذكِّر الآنسة ملر بوضع مطالبه قيد الاعتبار، فقد ذهب بعد ذلك بوقت قصير للغاية لزيارة اثنتين أو ثلاثٍ من الصديقات الأخريات، وكانت إحدى هؤلاء الصديقات سيدة أمريكية أمضت عدة شتاءات في جنيف حيث كانت قد وضعت أطفالها في المدرسة . كانت امرأة اجتماعية للغاية، وكانت تعيش في

« فاياغريغوريانا » . ووجدها وينتربورن في قاعة استقبال قرمزية اللون وصغيرة، في الطابق الثالث، وكانت الغرفة ملأى بأشعة الشمس الجنوبية . لم يكن قد مضى على وجوده هناك عشر دقائق عندما دخل الخادم إلى الغرفة معلناً : « السيدة ميلا ! » .

وتلا هذا الإعلان على الفور دخولُ راندولف ملر الصغير، الذي توقف في منتصف الغرفة ووقف يحدِّق في وينتربورن . وبعد لحظة عبرت أخته الجميلة عتبة الباب . ثم، وبعد فترة طويلة، تقدمت السيدة ملر ببطء . قال راندولف :

ــ إنني أعرفك .

هتف وينتربورن قائلاً وهو يأخذه من يده :

ــ أنا متأكد من أنك تعرف أشياء عظيمة كثيرة . ماهي أخبار ثقافتك ؟؟؟

كانت ديزي تتبادل التحيات مع مضيفتها على نحو جميل جداً، لكنها أدارت رأسها بسرعة عندما سمعت صوت وينتربورن . قالت :

ــ عجباً . إنني أؤكد .

أجاب وينتربورن مبتسماً :

ــ أخبرتك أنني لا بد أن أجيء، كما تعلمين .

قالت الآنسة ديزي :

ــ في الحقيقة لم أصدق ذلك .

فضحك الرجل الشاب قائلاً :

ــ أنا في غاية الامتنان لك .

قالت ديزي :

ــ لا بد وأنك قد أتيت لتراني !...

ــ لقد وصلت البارحة فحسب .

فصرَّحت الفتاة الشابة قائلة :

ــ لا أصدق ذلك !...

واستدار وينتربورن إلى أمها بابتسامة احتجاج، ولكن هذه السيدة تجنبت نظراته، وثبّتتْ عينيها، وهي تأخذ في الجلوس، على ابنها . قال راندولف :

ـــ لدينا مكان أكبر من هذا المكان، وجدرانه كلها مغطاة بالذهب .

فتململت السيدة ملر في كرسيها وغمغمت قائلة :

ـــ لقد قلت لك أنني لو أحضرتك فستقول شيئاً ما .

هتف راندولف قائلاً :

ـــ أنا الذي قلت لك !...

ثم أضاف بمرح وهو يضرب على ركبة وينتربورن :

ـــ وأقول لك يا سيدي !... إنه أكبر أيضاً !...

كانت ديزي قد دخلت في محادثة نشيطة مع مضيفتها . وقرر وينتربورن أنه من اللائق أن يوجّه بضع كلمات إلى أمها . قال :

ـــ آمل أن تكوني على ما يرام منذ أن افترقنا في « فيفيه » .

وهنا نظرت السيدة ملر بالتأكيد إليه، إلى ذقنه، وأجابت قائلة :

ـــ ليس على ما يرام تماماً ياسيدي .

قال راندولف :

ـــ لقد أصيبت بعسر هضم . وأصبتُ به أنا أيضاً . وأصيب به والدي . وأصبت أنا به على أسوأ ما يكون .

وبدا أن هذا التصريح قد أراح السيدة ملر بدلاً من أن يربكها . قالت :

ـــ إنني أشكو من الكبد . وأعتقد أن السبب هو هذا المناخ، فهو أقل إنعاشاً من مناخ « شينيكتادي »، لا سيما في فصل الشتاء . لا أعرف فيما إذا كنت تعرف أننا نقيم في « شينيكتادي » . كنت أقول لديزي أنني لم أجد بالتأكيد أي شخص كالطبيب ديفيز، ولم يساورني الاعتقاد أنني سأجد مثله . أوه، إنه الأول في « شينيكتادي »، ويتوقعون منه كل شيء . لديه أعباء جمة، ومع ذلك لم يكن ثمة ما

لم يفعله من أجلي . قال أنه لم يرَ قط ما يشبه سوء الهضم الذي أعانيه . ولكنه كان قد عقد عزمه على شفائي منه . وأنا على ثقة من أنه لم يكن ثمة شيء لن يجرِّبه . كان على وشك أن يجرب علاجاً جديداً عندما غادرنا . كان السيد ملر يريد لديزي أن ترى أوروبا من وجهة نظرها . ولكنني كتبت للسيد ميلر قائلة أن الأمر يبدو وكأنني لا أستطيع السفر بدون الطبيب ديفيز .. إنه يتربع على العرش الأول في « شينيكتادي »، وثمة مقدار كبير من الأمراض هناك أيضاً . إن ذلك يؤثر على نومي .

وانهمك السيد وينتربورن بقدر لا بأس به من الثرثرة عن الأمراض مع مريضة الطبيب ديفيز، كانت خلالها ديزي تثرثر دون انقطاع مع صاحبتها . وسأل الشاب السيدة ملر عن مدى سرورها في روما، فأجابت قائلة :

ـــ حسناً . يتحتم علي أن أقول أنني مصابة بخيبة أمل . كنا قد سمعنا الكثير عنها، وأعتقد أننا سمعنا أكثر مما ينبغي . بيد أننا لا نستطيع أن نتحمل ذلك . كنا مدفوعين إلى توقُّع شيء مختلف .

قال وينتربورن :

ـــ آه . انتظري قليلاً، وستصبحين مولعة

صاح راندولف قائلاً :

ـــ إن كرهي لها يزداد يوماً إثر يوم !..

قال وينتربورن :

ـــ أنت تشبه هنيبعل(*) عندما كان طفلاً .

(*) هنيبعل (247 ق.م ـــ 182 ق.م) : قائد قرطاجي فينيقي الأصل، وهو ابن القائد العر-
هاميلقار برقا . عقد هنيبعل العزم على إذلال روما وقهرها، فاحتل ساغونت (في إسبانيا)، وأشعل الحرب

فصرخ راندولف قائلاً في جرأة :

ــ كلا لست كذلك .

قالت أمه :

ــ أنت لا تشبه الطفل كثيراً .

ثم تابعت قائلة :

ــ بيد أننا رأينا أماكن يتحتم علي أن أضعها قبل روما بكثير .

ورداً على استفسار وينتربورن قالت :

ــ ثمة زيوريخ . أعتقد أن زيوريخ جميلة، ولم نسمع ما يعادل نصف ما سمعناه عنها .

قال راندولف :

ــ إن أفضل مكان شاهدناه هو « سيتي أوف ريتشموند » .

قالت أمه على سبيل الإيضاح :

ــ إنه يقصد السفينة . لقد عبرنا البحر في تلك السفينة، وقد أمضى راندولف وقتاً طيباً على متن السفينة « سيتي أوف ريتشموند » .

كرر الطفل قائلاً :

الفونية الثانية عام 219 ق.م . قاد حملة على إيطاليا الجنوبية منطلقاً من إسبانيا واجتاز جبال الألب الصعبة بجيشه وسبعة وخمسين فيلاً، وانتصر على الرومان في تريبيا عام 218 ، وترازيمينا عام 217 ق.م، وكانا عام 216 ق.م . عاد إلى قرطاجة عام 203 ق.م، ليقابل غزواً رومانياً، لكنه هُزِم في زاما عام202 ق.م، ونُفِي عام196 ق.م نزولاً عند إصرار روما . انتحر بتناول السم عام182 ق.م . المترجم .

ـــ إنها أفضل مكان شاهدتُه إلاّ أنها وُجِّهت اتِّجاهاً خاطئاً .

قالت السيدة ملر بضحكة صغيرة :
ـــ حسناً علينا أن نتوجَّه إلى الاتجاه الصحيح في وقت ما .

وأعرب وينـتربورن عن أمله في أن تكون ابنتها قد وجدت بعض المسرَّة، على الأقل، في روما . وصرَّحت أن ديزي كانت منجرفة العاطفة تماماً .

ـــ وهذا بسبب المجتمع . المجتمع ممتاز . إنها تتجول في كل مكان . وقد تعرفت على عدد كبير من الناس . إنها طبعاً تتجول أكثر مما أتجول . يتحتم علي أن أقول أنهم كانوا اجتماعيين للغاية، وقد فهموها تماماً . ثم إنها تعرف عدداً كبيراً من الرجال . أوه، إنها تعتقد أن ليس ثمة ما يضارع روما . ومن الطبيعي أن تكون روما أكثر إمتاعاً إلى حد كبير بالنسبة لفتاة شابة إذا كانت تعرف الكثير من الرجال .

وفي هذه الأثناء، كانت ديزي قد وجَّهت اهتمامها مرة أخرى إلى وينتربورن .

صرَّحت هذه الفتاة الشابة قائلة له :
ـــ كنت أخبر السيدة ووكر كم كنتَ خسيساً !

سألها وينتربورن قائلاً :
ـــ وما هو دليلك الذي قمت بتقديمه ؟؟؟

كان متضايقاً نوعاً ما لافتقار الآنسة ملر إلى تقدير حماسة المعجب الذي لم

يتوقف في بولونية ولا في فلورنسة(*) أثناء طريقه إلى روما والسبب، ببساطة، هو اشتياق عاطفي . وتذكّرَ أنَّ أحدَ مواطنيه الساخرين كان قد أخبره مرة أن النساء الأمريكيات ـــ الجميلات منهن، وهذا ما أعطى الحقيقة ضخامةً ـــ كنّ أكثر النساء في العالم تطلباً للعناية الفائقة وأقلهن إحساساً بعرفان الجميل في الوقت نفسه . قالت ديزي :

ـــ عجباً !.. كنت خسيساً على نحو مريع في « فيفيه » . ما كنت لتفعل شيئاً . ولم تُرِد البقاء هناك عندما طلبتُ منك ذلك .

صاح وينتربورن قائلاً بفصاحة :

ـــ يا أعزَّ سيدة لديَّ، هل تجشَّمْتُ عناءَ السفر طوال الطريق إلى روما لكي أقابل توبيخاتك ؟؟

قالت ديزي لمضيفتها، وهي تفتل عقدة في فستان هذه السيدة :

ـــ اسمعي ماذا يقول !.. هل سمعتِ شيئاً بهذه الغرابة ؟؟؟

غمغمت السيدة ووكر قائلة بنبرةٍ من تُناصِرُ وينتربورن :

ـــ بهذه الغرابة يا عزيزتي ؟؟؟

قالت ديزي وهي تمسّ بأصابعها شرائط السيدة ووكر :

ـــ حسناً . لاأعرف . أريد أن أخبرَكِ شيئاً أيتها السيدة ووكر .

فقاطعها راندولف قائلاً بنهايات كلماته الخشنة :

ـــ أماه . إنني أخبرك أنه يتحتم عليك أن تذهبي . سوف يثير يوجينيو مشكلة ما !..

قالت ديزي وهي ترفع رأسها بحركة مفاجئة :

(*) بولونية وفلورنسة : مدينتان في إيطاليا .

ـــ أنا لا أخشى يوجينيو .

وتابعت قائلة :

ـــ انظري هنا أيتها السيدة ووكر . تعرفين أنني سآتي إلى حفلتك .

ـــ يسرني سماع ذلك .

ـــ ولديَّ فستان جميل .

ـــ أنا متأكدة جداً من ذلك .

ـــ ولكنني سأطلب منك أن تسدي إليَّ معروفاً : السماح بإحضار صديق .

قالت السيدة ووكر وهي تلتفت بابتسامة إلى السيدة ملر :

ـــ سوف يسعدني أن أقابل أيّاً من أصدقائك .

فأجابت أم ديزي وهي تبتسم بخجل على طريقتها الخاصة :

ـــ أوه . إنهم ليسوا أصدقائي . لم أتحدث إليهم قَطّ !..

قالت ديزي دون أن يشوبَ صوتَها الصغيرَ الواضحَ ارتعاشةٌ، ودون أن يكتسي وجهها الصغير البرّاق بسحابة ما :

ـــ إنه صديق حميم لي . السيد جيوفانيللي .

صمتت السيدة ووكر لحظة، وألقت نظرة سريعة على وينتربورن قالت بعدها :

ـــ سوف يسرُّني أن أرى السيد جيوفانيللي .

تابعت ديزي قولها بأجملِ سَكِينَة :

ـــ إنه إيطالي، وهو صديق عظيم من أصدقائي، وأكثرُ الرجال وسامةً في العالم، ما عدا السيد وينتربورن !... إنه يعرف الكثيرات من الإيطاليات، ولكنه يريد أن يعرف بعض الأمريكيات .

وهو يفكر كثيراً جداً بالأمريكيات . إنه ذكي إلى حد هائل، ورائع تماماً .

وقرَّ القرارُ على وجوب إحضار هذه الشخصية اللامعة إلى حفلة السيدة ووكر، ثم استعدت السيدة للانصراف . قالت :

ـــ أعتقد أننا سنعود إلى الفندق .

قالت ديزي :

ـــ يمكنك أن تعودي إلى الفندق يا أماه، أما أنا فسوف أتمشى .

صرح راندولف قائلاً :

ـــ سوف تتمشى مع السيد جيوفانيللي .

قالت ديزي وهي تبتسم :

ـــ سوف أذهب إلى « البنشيو » .

سألتها السيدة ووكر قائلةً :

ـــ بمفردك يا عزيزتي ؟؟ وفي هذه الساعة ؟؟؟

كان الأصيل يقترب من نهايته، وكانت تلك الساعة هي ساعة ازدحام العربات والمشاة المولعين بالتأمل . وقالت السيدة ووكر :

ـــ لاأعتقد أن ذلك مأمون ياعزيزتي .

وأضافت السيدة ملر قائلةً :

ـــ ولا أنا . ستصابين بالحُمّى طوال حياتك . تذكّري ما قاله الطبيب ديفيز لك !..

قال راندولف :

ـــ أعطيها بعض الأدوية قبل أن تذهب .

نهض الضيوف على أقدامهم . وانحنت ديزي، وهي لاتزال تُظْهِرُ أسنانها الجميلة، وقبّلتْ مضيفتها . قالت :

ـــ أيتها السيدة ووكر، أنت غاية في الكمال . لن أذهب بمفردي . سوف أذهب لمقابلة صديق .

قالت السيدة ملر :

ـــ لن يحميكِ صديقُكِ من الإصابة بالحمّى .

سألتها المضيفة قائلةً :

ــ هل هو السيد جيوفانيللي ؟؟؟

كان وينتربورن يراقب الفتاة الشابة . وتسارع انتباهه عند هذا السؤال . وقفت هناك وهي تبتسم وتسوّي شرائطَ قلنسوتها، ورمقت وينتربورن بنظرة عجلى . ثم، وفيما راحت تنظر وتبتسم، أجابت دون أدنى تردد :

ــ السيد جيوفانيللي . جيوفانيللي الجميل .

قالت السيدة ووكر، وهي تأخذ يدها، متوسلة :

ــ يا صديقتي الشابة، لاتتمشي إلى « البنشيو » في هذه الساعة لتقابلي إيطالياً جميلاً .

قالت السيدة ملر :

ــ إنه، في الحقيقة، يتكلم الإنكليزية .

هتفت ديزي قائلة :

ــ يا إلهي !.. لاأريد أن أقوم بما هو غير لائق . ثمة طريقة سهلة للبت في الموضوع .

واستمرت في إلقاء نظراتها العجلى على وينتربورن . قالت :

ــ إنَّ « البنشيو » على مبعدة مائة ياردة فحسب، وإذا كان السيد وينتربورن مهذباً كما يدَّعي فسوف يعرض أن يتمشّى معي .

وأسرع تهذيبُ وينتربورن إلى تأكيد ذاته، ومَنَّتِ الفتاة الشابة عليه بفضل السماح اللطيف له بمرافقتها . عَبَرا إلى الطابق السفلي أمام أمها، وعند الباب رأى وينتربورن عربة السيدة ملر متوقفة وقد جلس في داخلها المرافق المُزَخْرَف الذي كان قد تعرف عليه في « فيفيه » .

صاحت ديزي قائلةً :

ــ وداعاً يا يوجينيو !.. سوف أتمشى .

تقْطَعُ المسافة الفاصلة بين « الفاياغريغوريانا » وبين الحديقة الجميلة الكائنة عند الطرف الآخر من الهضبة « البنشوية » بسرعة في الواقع . وبما أن النهار كان رائعاً، على أية حال، وحشود العربات والمتنزهين والمتسكعين كبيرة، فقد وجد الأمريكيان الشابان تقدمهما بطيئاً للغاية .

كانت هذه الحقيقة سـائغـةً بالنسبـة لوينتربورن على الرغم من إدراكه لموقفه الفريد . وقد منَّ الحشد الروماني، المحملق على نحو متسكع والمتحرك على نحو بطيء، باهتمام كبير على السيدة الأجنبية الشـابة التي كانت تعبر المكان متأبطة ذراعه . وتسـاءل عمـا كان يدور في مخيـلة ديزي عندما اعتزمتْ أن تعرضَ نفسها دون اكتراث لاستحسان الحشد . كانت مهمته، في نظرها، وعلى نحو واضح هي أن يُسَـلِّمها إلى أيدي السيد جيوفانيللي، بَيْدَ أن وينتربورن، الذي أُزْعِجَ وكوفئَ في الوقت نفسه، قرر أنه لن يقوم بمثل هذا العمل . سألته ديزي قائلةً :

ــ لِمَ لَمْ تأتِ لتراني ؟؟؟ لن تنجو من ذلك .

لقد تشرَّفْتُ بإخبارك أنني كنت قد نزلت من القطار لتوّي .

صاحت الفتاة الشابة بضحكتها الصغيرة :

ــ لا بد وأنك بقيت في القطار فترة لابأس بها بعد أن توقف . أعتقد أنك كنت نائماً . وكان لديك الوقت للذهاب ومقابلة السيدة ووكر !..

ــ عرفتُ أين عرفْتَها . لقد تعرَّفتَ عليها في جنيف . لقد أخبرتْني هي بذلك . حسناً، لقد تعرَّفتَ عليَّ في « فيفيه » . وهذا ملائم في الواقع . لذا كان يتحتّم عليك أن تأتي .

ولم تطرح عليه أي سؤال آخر سوى ذلك السؤال . وبدأت تثرثر عن شؤونها الخاصة :

ــ لقد حصلنا على غرف ممتازة في الفندق . يقول يوجينيو أنها أفضل الغرف في

روما . سوف نبقى فيها طوال الشتاء، إذا لم نمُت بالحمى . وأعتقد أننا سنبقى إلى النهاية فيها عندئذ . وهذا أظرف بكثير مما أعتقد، فلقد كنت أعتقد أن الأمر سيكون هادئاً على نحو مريع . وكنت على يقين من أنه سيكون مضجراً إلى حد بعيد . كنت متأكدة من أننا سنتجول طوال الوقت مع أحد هؤلاء الرجال المسنين الذين يشرحون الصور والأشياء . لكننا أمضينا أسبوعاً على تلك الشاكلة، أما الآن فإنني أمتّع نفسي . إنني أعرف أناساً كثيرين، وهم جميعاً على قدر كبير من الجاذبية . المجموعة منتقاة بعناية فائقة، وهناك جميع الأصناف : إنكليزيون، وألمانيون، وإيطاليون . أعتقد أنني أفضل الإنكليزيين على سواهم . أحب أسلوبهم في المحادثة . ولكن ثمة بعض الأمريكيين الظرفاء . لم أرَ أحداً قط بهذا الانفتاح . ثمة شيء أو آخر كل يوم . ليس ثمة الكثير من الرقص ولكن يتحتم علي أن أقول أنني لم أكن قط أعتبر الرقص كل شيء . كنت دائماً مغرمة بالمحادثة . وأعتقد أنني سأحظى بمحادثات وفيرة في حفل السيدة ووكر . إن غرفها صغيرة للغاية .

عندما اجتازا بوابة الحدائق « البنشوية » بدأت الآنسة ملر تتساءل أين يمكن أن يكون السيد جيوفانيللي . قالت :

ـــ يحسن بنا أن نذهب مباشرة إلى ذلك المكان الكائن أمامنا حيث تنظر إلى المشهد .

صرح وينتربورن قائلاً :

ـــ لن أساعدك على إيجاده بالتأكيد .

قالت الآنسة ديزي :

ـــ إذن سأجده دون مساعدتك .

صاح وينتربورن قائلاً :

ـــ حتماً لن تتركيني !

فانفجرت بضحكتها الصغيرة قائلة :

ـــ هل تخشى أن تتوه أو تُدهَس ؟؟ ولكن، ها هو جيونافيللي هناك يتكئ على تلك الشجرة . إنه يحدق إلى النسـاء الموجودات داخل العربات . هل رأيت قط شخصاً صفيقاً إلى هذه الدرجة ؟؟؟ ورأى وينتربورن على مسافة ما رجلاً صغيراً يقف وقد طوى ذراعيه، وتعهد عصاه بالرعاية والعناية . كان ذا وجه وسيم، وقبعة متوازنة ببراعة، ومنظار لي إحدى عينيه، وباقة زهر صغيرة في عروة سترته .

نظر وينتربورن إليه لحظة ثم قال :

ـــ هل تنوين التحدث إلى ذلك الرجل ؟؟؟

ـــ هل أنوي التحدث إليه ؟؟؟ عجباً !... وهل تظن أنني أنوي أن أتفاهم معه بالإشارات ؟؟؟

قال وينتربورن :

ـــ إذن أتوسل إليك أن تفهمي أنني أعتزم أن أبقى معك .

توقفت ديزي ونظرت إليه دون أن ترتسم على وجهها ملامح إدراك متضايق، ودون أي شيء سوى حضور عينيها الفاتنتين وغمّازاتها السعيدة . وفكر الشاب قائلاً في قرارة نفسه : « إنها فتاة صفيقة في الواقع » . قالت ديزي :

ـــ لا أحب الطريقة التي تقول فيها ذلك، فهي غاية في الاستبداد .

ـــ أستمحيكِ عذراً إذا كنت قد قلتها بطريقة مخطئة . إنَّ الهدف الأساسي هو أنْ أعطيكِ فكرة عمَّا أرمي إليه .

نظرتْ إليه الفتاة الشابة بمزيد من الوقار ولكنْ بعينين كانتا أجمل من أي وقت مضى . قالت :

ـــ لم أسمح قَطّ لسيد أنْ يُمْلي أوامره عليَّ، أو أن يتدخل في أي عمل أقوم به .

قال وينتربورن :

ـــ أعتقد أنكِ ارتكبتِ خطأً . يتحتّم عليك أحياناً أنْ تصغي إلى سيد . سيد حقيقي .

بدأت ديزي تضحك مرة أخرى . وهتفت قائلةً :

ـــ إنني لاأفعل شيئا سوى الإصغاء إلى السادة !.. أخبرني إذا كان السيد جيوفانيللي هو السيد الحقيقي .

كان السيد الذي وضع باقة زهر صغيرة في صدره قد لاحظ صديقنا الآن، فراح يقترب من الفتاة الشابة بسرعة خانعة . انحنى لوينتربورن كما انحنى لصاحبته . كان ذا ابتسامة برّاقة وعين ذكية . ولم يره وينتربورن شخصاً سيء المظهر . ولكنه، مع ذلك، قال لديزي :

ـــ كلا . إنه ليس الحقيقي .

كانت ديزي تتحلّى، على نحو واضح، بموهبة طبيعية في القيام بتعريف شخص على آخر . ذكرت اسمَ كل واحد من رفيقيها للآخر . وتَقَدَّمَتْ بخطى بطيئة وعلى كل جانب منها واحدٌ منهما .

وجَّه إليها السيد جيوفانيللي الذي كان يتحدث الإنكليزية بذكاء شديد مقداراً كبيراً من الهراء المهذب إلى أبعد حد . (وقد علم وينتربورن بعد ذلك أنه كان يطبّق هذه اللغة على عدد كبير جداً من الوريثات الأمريكيات) . كان بالغ التهذيب، وراح الأمريكي الشاب الذي لم يقل شيئا يفكر في عمق الذكاء الإيطاليّ الذي يتيح للناس أن يظهروا على درجة متزايدة من اللباقة فيما هم يتوغلون في الإحباط بشكل قاس . كان جيوفانيللي طبعاً يعتمد على شيء أكثر حميمية، إذْ لم يتوقع مجموعة من ثلاثة أشخاص . إلاَّ أنَّه احتفظ برباطة جأشه بطريقة أوحتْ بأنَّ نواياه بعيدة المدى . وأقنع وينتربورن نفسه بأنه قد أخذ حجمه . قال الأمريكي الشاب في قرارة نفسه : « إنه ليس سيداً، بل مجرد تقليد ذكي لسيد . إنه مدّرس موسيقي أو كاتب رخيص أو فنان من الدرجة الثالثة . اللعنة على وسامته !.. » . كان السيد جيوفانيللي ذا وجه جميل بالتأكيد، ولكنَّ وينتربورن شعر بسخط استعلائي على جهل زميلته الأمريكية الريفية الفرق بين سيد مُزَيَّف وبين سيد حقيقي . كان جيوفانيللي يثرثر

ويمزح ويجعل نفسه مقبولاً على نحو رائع . وإنه لمن الصدق أن نقول أنه إنْ كان تقليداً فإنَّ هذا التقليد غاية في البراعة .

« مع ذلك، على الفتاة الجميلة أن تعرف !.. » . هكذا قال وينتربورن في قرارة نفسه . ثم عاد إلى السؤال فيما إذا كانت هذه في الحقيقي فتاة جميلة . هل يمكن لفتاة جميلة ــ حتى لو سمحنا لها أن تكون عابثة أمريكية صغيرة ــ أن تحدد موعداً مع من يُفْتَرضُ أن يكونَ أجنبياً وضيعَ المنزلة ؟؟؟

لقد كان الموعد، في الحقيقة، وفي هذه الحالة في وضَح النهار، وفي أشدِّ أركان روما ازدحاماً . ولكنْ، أليس في الإمكان اعتبار مجرد اختيار هذه الظروف برهاناً على« الكلبية » (*) المفرطة ؟؟؟

وقد يبدو من الغريب أن وينتربورن اغتاظ لأن هذه الفتاة، لدى التحاقها بعشيقها، لم تظهر الغيظ لوجوده هو، واغتاظ بسبب هواه . كان من المستحيل اعتبارها سيدة شابة حسنة السلوك تماماً . كانت تفتقر إلى رهافة حسٍّ أساسية لاغنى عنها .

إنه لِمَّا يُبَسِّط الأمور إذن، وإلى حدّ كبير، أنْ يعاملها المرء كموضع من مواضع إحدى تلك العواطف التي يسميها كتاب الروايات الغرامية « العواطف التي لاتعرف القوانين » . لو بدر منها ما يشير إلى أنها تتمنى التخلص منه لساعده ذلك على التفكير بها بمزيد من الاستخفاف، ولو كان قادراً على التفكير بها بمزيد من الاستخفاف لجعلها ذلك أقل إرباكاً . ولكنَّ ديزي استمرت في هذه المناسبة في تقديم نفسها كتركيب غامض من الوقاحة والبراعة .

كانت قد تمشت ما يقارب ربع ساعة يصاحبها مرافقاها الفارسان، وهي تجيب على أحاديث السيد جيوفانيللي الجميلة بنبرة فرح طفولي غامر، كما كان يلوح

(*) الكلبية : الإيمان بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها . المترجم .

لوينتربورن، عندما توقفت قرب الدرب عربة انفصلت عن الموكب المتتابع . وفي اللحظة نفسها لاحظ وينتربورن أن صديقته السيدة ووكر ــ وهي السيدة التي كان قد غادر منزلها مؤخراً ــ كانت جالسة في العربة، وكانت تومئ له . وأسرع امتثالاً لاستدعائها تاركاً مكانه جانب الآنسة ملر . كان الدم يشيع في وجه السيدة ووكر، وكانت مصطبغة بكبرياء منفعلة . قالت :

ــ إن ذلك فظيع للغاية حقاً . لاينبغي على تلك الفتاة أن تقوم بمثل هذا النوع من السلوك . لاينبغي عليها أن تتمشى هنا معكما أنتما الرجلان . لقد رآها خمسون شخصاً .

رفع وينتربورن حاجبيه قائلاً :

ــ أعتقد أنه من المؤسف إثارة الكثير من الهرج حول ذلك .

ــ من المؤسف أن تتركا الفتاة تدمر نفسها !..

قال وينتربورن :

ــ إنها بريئة للغاية .

صاحت السيدة ووكر قائلةً :

ــ إنها معتوهة للغاية !.. هل رأيتَ قط إنسـاناً على درجة كبيرة من البلاهة كأمها ؟؟؟ بعد أن غادرتموني جميعاً، الآن تماماً، لم أستطع الجلوس في هدوء من جراء التفكير في ذلك . وقد بدا من المؤسف للغاية ألاَّ يحاول المرء أن ينقذها حتى، فطلبتُ العربة واعتمرتُ قلنسوتي وأتيت إلى هنا بأسرع ما يمكن . وأشكر السماء على أنني وجدتكما !..

سألها وينتربورن مبتسماً :

ــ وماذا تعتزمين أن تفعلي معنا ؟؟

ــ أن أطلب منها أن تركب العربة، وأن أتجول بها في الجوار لمدة نصف ساعة بحيث يرى العالم أنها لاتسير بطيش مطلق، وأن آخذها بعد ذلك إلى الفندق بأمان .

قال وينتربورن :

ـــ لأعتقد أنها فكرة محظوظة جداً . ولكنْ، في مقدورك أن تحاولي .

وحاولت السيدة ووكر . وذهب الشاب في إثرِ الآنسة ملر التي أومأت وابتسمت ببساطة لمحادثاته في العربة، وتابعت طريقها مع رفيقها . وعندما علمت ديزي أنَّ السيدة ووكر كانت ترغب في التحدث إليها، عادت أدراجها عن طيب خاطر تام وإلى جانبها السيد جيوفانيللي . وصرحت بأنه لَمِمَّا يسرُّها أنْ تتاح لها فرصة تقديم هذا السيد للسيدة ووكر . وأنجزت التقديم على الفور وأعلنت أنها لم تر في حياتها أجمل من غطاء عربة السيدة ووكر .

قالت هذه السيدة وهي تبتسم في عذوبة :

ـــ إنني مسرورة لإعجابك به . هلا تفضَّلْتِ بالركوب والسماح لي بوضعه فوقك ؟؟؟

قالت ديزي :

ـــ أوه . كلا . أشكرك . سيزيد إعجابي به عندما أراك تتنزهين به في الجوار .

قالت السيدة ووكر :

ـــ هيا اركبي وتنزهي معي .

قالت ديزي :

ـــ سيكون ذلك فاتناً، ولكن ما أنا عليه تماماً فاتن للغاية !...

وألقت ديزي نظرة متألقة على السيدين الواقفين إلى جانبيها .

فألحت السيدة ووكر قائلةً وهي تنحني الى الأمام في عربتها الفيكتورية وقد تشابكت على نحو ورِع :

ـــ قد يكون ذلك فاتناً، يا طفلتي العزيزة، ولكنَّ التقاليد هنا لاتألف ذلك .

قالت ديزي :

ـــ حسناً، عليها أنْ تألف ذلك إذن . سألفظ أنفاسي الأخيرة إذا لم أتنزه .

فصاحت السيدة القادمة من جنيف وقد عيل صبرها :

ـــ يجب أن تتنزهي مع أمك يا عزيزتي . !..

وأدرك وينتربورن أنها اشتمَّتْ رائحة تَدَخُّل . قالت :

ـــ لم تمشِ أمي عشرَ خطوات في حياتها قط .

وأردفت قائلةً وهي تضحك :

ـــ ثم إنك تعرفين أنَّ عمري تجاوز الخمس سنوات .

ـــ أنتِ كبيرة الى درجة تكفي لأن تكوني أكثر منطقية . أنت أكبر من أن يتحدث الناس عنك يا عزيزتي الآنسة ملر .

نظرت ديزي الى السيدة ووكر وهي تبتسم بحدة ثم قالت :

ـــ يتحدث الناس عني ؟؟ ماذا تقصدين ؟؟؟

ـــ ادخلي عربتي وسوف أخبرك .

وأجابت ديزي نظرتها المتسارعة مرة أخرى من أحد السيدين الموجودين بجانبها إلى الآخر . كان السيد جيوفانيللي ينحني ذات اليمين وذات اليسار وهو يفرك قفازيه، ويضحك بطريقة متناغمة للغاية . واعتبر وينتربورن المشهد مزعجاً إلى أبعد حد . قالت ديزي في الوقت الحالي :

ـــ لاأعتقد أنني اريد أن أعرف ماذا تقصدين . لاأعتقد أنني سأحب ذلك .

وتمنى وينـتربورن أن تندس السيدة ووكر داخل غطاء عربتها وتنطلق مبتعدة . ولكنْ، لم يرق التحدي لهذه السيدة كما أخبَرَتْهُ فيما بعد . سألتها قائلةً :

ـــ هل تفضلين أن يعتبرك الناس فتاة متهورة للغاية ؟؟؟

هتفت ديزي قائلةً :

ـــ يا إلهي !!..

ونظرت مرة أخرى إلى السيد جيوفانيللي، ثم استدارت إلى وينتربورن . كان ثمة

تورد قرمزي طفيف في وجنتها . كانت جميلة إلى حد هائل . سألته ببطء وهي تبتسم وترمي رأسها إلى الخلف وتنظر إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه :

ــ هل يعتقد السيد وينتربورن أنه يتحتم عليَّ أن أركب العربة إنقاذاً لسمعتي ؟؟؟

واحمر وينتربورن خجلاً . وتردد إلى حد كبير لمدة لحظة . بدا غريباً أن يسمعها تتحدث بتلك الطريقة عن« سمعتها » . يَبْدَ أنه يتحتم عليه هو نفسه، في الحقيقة، أن يتحدث بمقتضى آداب الكياسة البالغة . وكانت أرق كياسة، في هذا الموضع، هي، ببساطة، أن يخبرها الحقيقة . والحقيقة في نظر وينتربورن ــ بما أن الإشارات القليلة التي أتيح لي ان أقدمها عنه جعلته معروفاً بالنسبة للقارئ ــ هي انَّ على ديزي ملر أن تأخذ بنصيحة السيدة ووكر . نظر إلى جمالها الأخّاذ، ثم قال برقة متناهية :

ــ أعتقد انه يتحتم عليك أن تدخلي العربة .

وأطلقت ديزي ضحكة عنيفة، وقالت :

ــ لم أسمع قط بمثل هذا التيبس .

ثم تابعت قائلةً :

ــ إذا كان هذا التصرف خاطئاً، أيتها السيدة ووكر، فأنا كلي على خطأ إذن، وتحتم عليك أن تنفضي يديك مني . وداعاً . أتمنى لك نزهة جميلة !..

واستدارت مبتعدة مع السيد جيوفانيللي الذي حيَّاهما بانتصار تحية خانعة .

وجلست السيدة ووكر وهي تلاحقها بنظراتها، وكانت ثمة دموع تترقرق في عينيها . قالت لوينتربورن وهي تشير الى مكان بجانبها :

ــ اركب هنا يا سيدي .

أجاب الشاب أنه يشعر بأنه ملزم بمصاحبة الآنسة ملر، وعندئذ أعلنت السيدة ووكر أنه إذا رفض أن يمنَّ عليها بذلك الفضل فلن تتحدث إليه مرة أخرى . كانت جادّةً على نحو واضح . لحق وينتربورن بديزي ورفيقها، وأخبر الفتاة الشابة، وهو يقدم يده إليها، أنَّ السيدة ووكر قد تقدمت بطلب صحبته على نحو لاسبيل الى

تجاهله . وتوقع أن تقول، على سبيل الإجابة، شيئا صريحاً، شيئاً تُوغِلَ بموجبه في تسليم نفسها إلى ذلك الطيش الذي حاولت السيدة ووكر بترفق أن تثنيها عنه . إلاَّ أنها صافحت يده فحسب وهي لاتكاد تنظر، بينما ودعه السيد جيوفانيللي بتلويح قبعته على نحو لافت للنظر جدا .

لم يكن وينتربورن في أفضل مزاج ممكن عندما اتخذ مقعده في عربة السيدة ووكر الفيكتورية .

قال بصراحة عندما اختلطت العربة مرة أخرى بحشد العربات :

ــ إن عملكِ لاينمُّ عن ذكاء .

أجابت رفيقته :

ــ في مثل هذه الحالة لاأتمنى أن أكون ذكية، بل أتمنى أن أكون جادة !...

ــ حسناً . لقد آذَتْها جدّيتُكِ فحسب ونَفَّرَتْها .

قالت السيدة ووكر :

ــ لقد حدث الأمر على أكمل وجه . إذا كانت قد عقدت عزمها على تعريض نفسها للفضيحة، فإنه من الأفضل للمرء أن يعلم ذلك على جناح السرعة، ويتسنى للمرء عندئذ أن يتصرف وفقاً لذلك .

فأنكر وينتربورن هذا قائلاً :

ــ لاأعتقد أنها كانت تقصد الإساءة .

ــ هذا ما كنت أعتقده منذ شهر . لكنها كانت توغل في التمادي .

ــ ماذا كانت تفعل ؟؟

ــ كل ما لا يفعلونه هنا : مغازلة أي رجل تستطيع أن تلتقطه، الجلوس في الزوايا مع إيطاليين مريبين، الرقص طوال المساء مع الأشخاص أنفسهم، واستقبال زوار في الساعة الحادية عشرة ليلاً . وعندما يأتي الزوار تبتعد أمها عن المنزل .

قال وينتربورن ضاحكاً :

ـــ ولكن أخاها يسهر حتى منتصف الليل .
ـــ يجب أن يتنوّر بما يرى . لقد تناهى إليّ أن كل شخص في الفندق الذي يقيمون فيه يتحدث عنها، وأن الابتسامة تطوف بين الخدم عندما يأتي أحد السادة ويسأل عن الآنسة ملر .

قال وينتربورن بحنق :

ـــ تبّاً للخدم !..

وأردف الآن قائلاً :

ـــ إن خطأ هذه الفتاة المسكينة الوحيد هو أنها ساذجة للغاية .

صرّحت السيدة ووكر قائلة :

ـــ إنها بالفطرة لا تراعي مشاعر الآخرين . ولتأخذ ذلك المثال الذي وقع هذا الصباح . كم مضى على معرفتك بها في « فيفيه » ؟؟؟

ـــ يومان .

ـــ تخيّل إذن كيف جعلت الأمر شخصياً بقولها أنه يتحتم عليك أن تغادر المكان !..

صمت وينتربورن بضع لحظات، ثم قال :

ـــ أظن أيتها السيدة ووكر أننا، أنا وأنت، قد عشنا فترة طويلة في جنيف !..

وأعقب ذلك بقوله أنه يتحتم عليها أن تخبره عن الهدف الخاص الذي جعلته بموجبه يدخل العربة .

ـــ كنت أتمنى أن ألتمس منك إيقاف علاقاتك مع الآنسة ملر، وألاّ تغازلها، وألا تعطيها فرصة أخرى لفضح نفسها . باختصار : أن تتركها وشأنها .

قال وينتربورن :

ـــ أخشى ألا يكون في مقدوري أن أفعل ذلك . إنني أحبها إلى حد هائل .

ـــ وهذا ما يدعوك أكثر إلى عدم مساعدتها على تعريض نفسها لفضيحة .

— لن يكون ثمة ما يشين في اهتماماتي بها .

— سيكون ثمة ما يشين حتماً في الطريقة التي تتلقى بها اهتماماتك .

وتابعت السيدة ووكر قائلة :

— لكنني قلت ما في ضميري . إذا كنت ترغب في العودة ثانية إلى السيدة الشابة فسوف أُنزِلُك .

وهنا، بالمناسبة، لديك فرصة .

كانت العربة تجتاز ذلك الجزء من الحديقة « االبنشوية » الذي يشرف على سور روما ويطل على فيلاً « بورغيز » الجميلة، والتي يتاخمها حاجز كبير تقع قربه عدة مقاعد . وكان يشغل أحد هذه المقاعد وعلى مسافة، سيد وسيدة أشارت إليهما السيدة ووكر بحركة مفاجئة من رأسها . وفي اللحظة نفسها نهض هذان الشخصان، ومشيا باتجاه الحاجز . وكان وينتربورن قد طلب من الحوذي أن يتوقف . ونزل الآن من العربة .

نظرت إليه رفيقته لحظة في صمت، ثم، وبينما كان يرفع قبعته، انطلقت مبتعدة على نحو ملكي .

ووقف وينتربورن هناك . كان قد أدار عينيه باتجاه ديزي وفارسها، وكان من الواضح أنهما لم يريا أي شخص . كان كل منهما مستغرقاً في الآخر بعمق .

وعندما وصلا إلى سور الحديقة الخفيض وقفا لحظة يسرحان بأنظارهما في مجموعات الصنوبر الكبيرة ذات الرؤوس المسطحة والتابعة لفيلا « بورغيز » . ثم جلس جيوفانيللي بطريقة غير رسمية على إفريز السور العريض . كانت الشمس الغربية في السماء المقابلة ترسل بصيصاً متألقاً عبر خطوط الغيوم القليلة . وعندئذ أخذ رفيق ديزي مظلتها من يديها وفتحها . اقتربت منه أكثر ورفع المظلة فوقها ثم، وهو لايزال يمسك بالمظلة، تركها تستقر على كتفها بحيث توارى رأساهما معاً عن وينتربورن .

وتردد الشاب لحظة، ثم بدأ يمشي . بيد أنه لم يمش باتجاه هذين الاثنين اللذين كانا يحملان المظلة، بل باتجاه مسكن عمته، السيدة كوستيللو .

4

في اليوم التالي أقنع نفسه أنه لم يكن ثمة تبسُّمٌ بين الخدم عندما سأل، على الأقل، عن السيدة ملر في فندقها . على أية حال، لم تكن هذه السيدة وابنتها في المقر، وفي اليوم الذي تلاه، وبعد أن كرر زيارته، مُنِيَ وينتربورن بسوء الحظ فلم يجدهما . وفي اليوم الثالث قامت حفلة السيدة ووكر، وكان وينتربورن وسط الضيوف على الرغم من برودة لقائه الأخير مع المضيفة . كانت السيدة ووكر واحدة من تلك السيدات الأمريكيات اللواتي كن، أثناء إقامتهن في الخارج، يعمدن بأسلوبهن الخاص إلى دراسة المجتمع الأوروبي، وكانت قد جمعت في هذه المناسبة عدة عينات من المخلوقات البشرية المتماثلة ذات المنابت المتنوعة، لتقوم، إذا جاز التعبير، مقام الكتب المدرسية . عندما وصل وينتربورن لم تكن ديزي ملر هناك، ولكنْ وفي غضون بضع لحظات رأى أمها تدخل بمفردها بخجل وكآبة بالِغَيْن . كان شعر السيدة ملر، فوق صدغيها اللذين برزا مكشوفين، أكثر تجعداً من ذي قبل . وعندما اقتربت من السيدة ووكر اقترب وينتربورن أيضاً .

قالت السيدة ملر المسكينة :

ـــ أترين !.. لقد جئت بمفردي تماماً . لشدَّما أنا مذعورة . لا أعرف ما ذا أفعل . أنها المرة الأولى في حياتي التي أحضر فيها حفلة بمفردي، لاسيا في هذا البلد . كنت أودُّ إحضار راندولف أو يوجينيو أو أي شخص ما، ولكن ديزي دفعتني إلى الخروج بمفردي . لست معتادة على التجوال بمفردي .

فتساءلت السيدة ووكر على نحو مؤثر :

ـــ ألا تعتزم ابنتك أن تمنَّ علينا بصحبتها ؟؟؟

قالت السيدة ملر بلهجة المؤرخ النزيه، إن لم يكن الفيلسوف، التي كانت

تسجل بها دائماً الأحداث الجارية في سيرة حياة ابنتها :

ـــ لقد انتهت ديزي، في الواقع، من ارتداء ملابسها . لقد ارتدت ملابسها قبل العشاء عن قصد . لكن لديها أحد أصدقائها هناك الآن . ذلك السيد ـــ الإيطالي ـــ الذي أرادت أن تُحضره . لقد جلسا إلى البيانو، ويبدو وكأنهما لا يستطيعان أن يتركاه . إن السيد جيوفانيللي يغني بشكل رائع .

واختتمت السيدة ملر حديثها قائلة على نحو مفعم بالأمل :

ـــ ولكنني أعتقد أنهما سيأتيان قبل مضي وقت طويل .

قالت السيدة ووكر :

ـــ يؤسفني أنها ستحضر ... بتلك الطريقة .

أجابت أم ديزي :

ـــ حسناً . لقد أخبرتها أنْ لا فائدة من ارتدائها ملابسها قبل العشاء إذا كانت ستنتظر ثلاث ســاعات . لم أدرك الفـائدة من ارتدائها فستـا ناً كذلك الفستان للجلوس مع السيد جيوفانيللي .

قالت السيدة ووكر وهي تستدير جانباً وتوجِّه نفسها إلى وينتربورن :

ـــ هذا فظيع للغاية . إنها لمتباهية . وهذا هو انتقامها لأنني تجرأت واعترضت عليها . لن أتحدث إليها عندما تأتي .

جاءت ديزي بعد الساعة الحادية عشرة، ولكنها لم تكن في مناسبة كهذه شابة تنتظر أن يتحدث المرء إليها . اندفعت قدُماً بجما ل أخّاذ، وهي تبتسم وتثرثر، حاملة معها باقة ضخمة من الأزهار وبصحبتها السيد جيوفانيللي . وتوقف كل شخص عن الكلام واستدار ونظر إليها .

توجَّهت مباشرة نحو السيدة ووكر قائلة :

ـــ خشيت أن تكوني قد ظننت أني لن آتي أبداً، لذا أرسلت أمي لتخبرك أردت أن أدفع السيد جيوفانيللي إلى القيام ببعض التدريبات قبل أن يأتي . تعلمين أنه

يغني بشكل جميل، وأريدك أن تطلبي منه أن يغني . هذا هو السيد جيوفانيللي . أنت تعرفين أنني قدمته إليك . إنه يمتاز بأجمل صوت، ويعرف مجموعة من أجمل الأغاني التي تأخذ بمجامع الألباب . لقد جعلته يرا جعها هذا المساء عن قصد . كان لدينا متسع كبير جداً من الوقت في الفندق .

حررت ديزي نفسها من كل هذه المعلومات بأعذب وألمع صوت مسموع وهي تنظر تارة إلى مضيفتها، وتارة في أرجاء الغرفة، فيما راحت تقوم بسلسلة من التمليسات، حول كتفيها، لأطراف فستانها . وتساءلت قائلة :

ــ هل هنالك من أعرفه ؟؟

قالت السيدة ووكر على نحو حافل بالمعا ني :

ــ أعتقد أن كل شخص يعرفك !...

وألقت تحية خاطفة جداً على السيد جيوفانيللي . كان هذا السيد يقدم نفسه على نحو متودد . كان يبتسم وينحني ويُظهِرُ أسنانه البيض، ويفتل شاربه، ويقلّب عينيه، وكان يؤدي كل المهام التي تليق بإيطالي جميل في حفلة مسائية . غنّى، على نحو ظريف للغاية، نصف دزينة من الأغاني على الرغم من أن السيدة ووكر صرّحت بعد ذلك أنها عجزت تماماً عن اكتشاف من طلب منه ذلك . لم تكن ديزي، على ما يظهر، هي التي أعطته الأوامر . كانت ديزي تجلس على مبعدة من البيانو، وعلى الرغم من أنها عبّرت على رؤوس الأشهاد، إذا جاز التعبير، عن إعجاب رفيع بغنائه، إلاّ أنها كانت تتحدث بصوت مسموع فيما كان الغناء يأخذ مجراه . قالت لوينتربورن وكأنها رأته قبل خمس دقائق :

ــ من المؤسف أن هذه الغرف صغيرة جداً . ليس في وسعنا أن نرقص .

أجاب وينتربورن :

ــ لست آسفاً على أننا لا نستطيع الرقص، فأنا لا أرقص .

قالت الآنسة ديزي :

ـــ طبعاً أنت لا ترقص، فأنت متيبس للغاية . آمل أن تكون قد استمتعت بنزهتك في العربة مع السيدة ووكر .

ـــ كلا . لم أستمتع بها ، فقد فضَّلتُ المشي معك .

قالت ديزي :

ـــ لقد اتفقنا على أن ذلك كان أفضل بكثير . ولكن، هل سمعت ما يضاهي برودة رغبة السيدة ووكر في أن أركب عربتها، وأتخلى عن السيد جيوفانيللي المسكين، بحجة أن ذلك كان لائقاً ؟؟ للناس فيما يعشقون مذاهب !.. لو فعلت ذلك لكان عمـلاً في منتهى الفظاظة . لقد ظل يتكلم عن تلك النزهة عشرة أيام . قال وينتربورن :

ـــ ما كان له أن يتحدث عنها على الإطلاق . وما كان له أبداً أن يقترح على سيدة شابة من هذا البلد أن تتسكع معه في الشوارع .

صاحت ديزي بتحديقها الجميل :

ـــ في الشوارع ؟؟؟ وأين له إذن أن يقترح عليها أن تتمشى ؟؟؟ إن « البنشيو » ليست هي الشوارع أيضاً، ولست،وشكراً لله،سيدة شابة من هذا البلد . إن الوقت الذي تقضيه سيدات هذا البلد الشابات خالٍ من المتعة والحيوية إلى حد مريع حسبما علمت حتى الآن . ولا أرى لِمَ يتحتم عليَّ أن أبدِّلَ عاداتي من أجلهنَّ .

قال وينتربورن بوقار :

ـــ أخشى أن تكون عاداتك هي العادات التي تتميز بها الفتاة العابثة .

صاحت وهي تمنحه تحديقتها المبتسمة الصغيرة مرة أُخرى :

ـــ طبعاً، إنها لكذلك، فأنا عابثة مخيفة ومرعبة . هل سمعت في حياتك عن فتاة جميـلة لم تكن كذلك ؟؟؟ ولكنني أعتقد أنك ستقول لي الآن أنني لست فتـاة جميلة .

قال وينتربورن :

ـــ أنت فتاة جميلة للغاية، ولكنني أتمنى أن تعبثي معي، ومعي فحسب .

ـــ آه !... شكراً لك . شكراً جزيلاً . أنت آخر رجل يتعين عليَّ أن أفكر العبث معه . وكما سرَّني أن أخبرتك، أنت متيبس للغاية .

قال وينتربورن :

ـــ ترددين ذلك كثيراً .

أطلقت ديزي ضحكة مسرورة، وقالت :

ـــ إذا كان في ميسوري الحصول على الأمل العذب في إثارة غضبك فسوف أقولها مرة أخرى .

ـــ لا تفعلي ذلك، فعندما أغضب أزداد تيبساً عمّا قبل . ولكن، إذا كنت لن تعبثي معي، فتوقفي على الأقل عن العبث مع صديقك عند البيانو، فهم لا يفهمون مثل هذه الأمور هنا .

هتفت ديزي قائلة :

ـــ كنت أعتقد أنهم لم يفهموا شيئاً سواها .

ـــ لا في حالة الفتيات الشابات العازبات .

صرحت ديزي قائلة :

ـــ يخيل لي أن ذلك يليق بالفتيات الشابات العازبات أكثر مما يليق بالمتزوجات العجائز .

قال وينتربورن :

ـــ حسناً . عندما تتعاملين مع سكان البلاد المحليين عليك أن تلتزمي بعادات المكان . العبث عادة أمريكية صرفة، وهو غير موجود هنا . لذا عندما تعرضين نفسك على الملأ مع السيد جيوفانيللي وبدون مرافقة أمك ....

قاطعته ديزي قائلة :

ـــ يا إلهي !... أمي المسكينة !!..

ـــ وعلى الرغم من أنك قد تمارسين العبث فإن السيد جيوفانيللي ليس كذلك . إنه يرمي إلى شيء آخر .

قالت ديزي بمرح :

ـــ إنه لا يلقي المواعظ على أية حال . وإذا كنت تود معرفة الكثير فإن أياً منّا لا يمارس العبث . إن صداقتنا أسمى من ذلك . نحن صديقان حميمان للغاية .

أجاب وينتربورن :

ـــ آه . إذا كنتما عاشقين فالأمر يختلف .

كانت قد سمحت له أن يتحدث بمثل هذه الصراحة إلى هذا الحد بحيث لم يكن يتوقع أن يسبب لها صدمة بمثل هذا القول المفاجئ، بيد أنها نهضت على الفور وقد احمرت خجلاً بوضوح، وقالت وهي تلقي على محادثها نظرة واحدة تركته بعدها يعلن في دخيلة نفسه أن العابثات الأمريكيات الصغيرات هنَّ أغرب المخلوقات في العالم :

ـــ إن السيد جيوفانيللي، على الأقل، لا يقول لي أبداً مثل هذه الأمور المقيتة .

أصيب وينتربورن بالارتباك، ووقف يحدِّق . كان السيد جيوفانيللي قد فرغ من الغناء، فترك البيانو وجاء إلى ديزي . سألها وهو ينحني أمامها بابتسامته الزخرفية :

ـــ ألن تدخلي الغرفة الأخرى لتناول بعض الشاي ؟؟؟

فاستدارت ديزي إلى وينتربورن وقد عاودت الابتسام . كان ارتباكه قد ازداد إذ أن هذه الابتسامة التي لم تكن على صلة بالموضوع لم توضح شيئاً، على الرغم من أنها أثبتت، على ما يبدو، أن لديها في الواقع عذوبة ورقّة تعودان غريزياً إلى ميزة الصفح عن الإساءة . قالت بأسلوبها التعذيبي الصغير :

ـــ لم يخطر قط للسيد وينتربورن أن يقدم لي أيَّ شاي .

ردَّ وينتربورن قائلاً :

ـــ لقد قدمت لك النصح .

صاحت ديزي :

ـــ إنني أفضل الشاي الخفيف !...

وخرجت مع جيوفانيللي اللامع . جلست معه في الغرفة المجاورة عند كوَّة النافذة بقية المساء . كان ثمة عزف ممتع على البيانو، ولكن أياً منهما لم يقم لذلك أيَّ وزن .

وعندما أتت ديزي لتستأذن بالانصراف من السيدة ووكر أصلحت هذه السيدة، بضمير حي، نقطة الضعف التي أذنبت بها لحظة وصول الفتاة الشابة . أدارت ظهرها مباشرة للآنسة ملر وتركتها ترحل بالكياسة التي يحلو لها أن ترحل بها . كان وينتربورن يقف قرب الباب، ورأى كل ذلك . وامتقع لون ديزي، ونظرت إلى أمها، بيد أن السيدة ملر، وبكل تواضع، لم ترَ أي انتهاك للأعراف الاجتماعية المألوفة . ظهرت، في الواقع، وكأنها قد أحست بأن من غير اللائق أن تلفت النظر إلى مراقبتها الأخاذة لهما . قالت :

ـــ تصبحين على خير أيتها السيدة ووكر . لقد قضينا مساءً ممتعاً . سترين إذا كنت سأسمح لديزي أن تحضر حفلات بدوني . لا أريدها أن تخرج من دوني .

واستدارت ديزي مبتعدة وهي تنظر بوجه شاحب وقور إلى الدائرة الموجودة قرب الباب، ورأى وينتربورن أنها كانت، للوهلة الأولى، مصدومة جداً ومرتبكة إلى درجة السخط . وكان من ناحيته متأثراً إلى حد كبير . قال للسيدة ووكر :

ـــ هذه فظاظة للغاية .

أجابت مضيفته :

ـــ لن تدخل غرفة استقبالي مرة أخرى أبداً .

وبما أن السيد وينتربورن لم يعد قادراً على مقابلتها في غرفة استقبال السيدة ووكر، فقد راح يكثر التردد، قدر الإمكان، على فندق السيدة ملر . ونادراً ما كانت السيدتان تتواجدان في غرفتهما، وعندما كان يجدهما فيها، كان المخلص جيوفانيللي حاضراً دائماً . وكثيرة جداً هي المرات التي كان فيها هذا الروماني الصغير المهذب يتواجد في غرفة الاستقبال مع ديزي بمفردهما، وذلك لكون السيدة ملر تقف

بوضوح وباستمرار إلى جانب الرأي الذي يقول أن حرية التصرف هي أفضل صفة للرعاية . ولاحظ وينتربورن، بدهشـة للوهلة الأولى، أن ديزي لم تكن في هذه المناسبات تشعر أبداً بأي ارتباك أو ضيق عند دخوله، بيد أنه بدأ يشعر في الآونة الأخيرة أنها لم تعد تُضمِرُ له المزيد من المفاجآت . كان ما هو غير متوقع في سلوكها هو الشيء الوحيد الذي يتعين على المرء أن يتوقعه . لم تكن تبدي أي امتعاض إذا قطع أحد عليها حديثها الحميم مع جيوفانيللي . كان في مقدورها أن تثرثر مع رجلين بالطلاقة والحرية اللتين تثرثر بهما مع رجل واحد . وكان يكمن في محادثتها دائماً مزيج الجرأة والصبيانية الغريب نفسـه . ولاحظ وينتربورن في قرارة نفسه أنها لو كانت مهتمة بجيوفانيللي على نحو جاد فمن الغريب للغاية ألاّ تتجشم المزيد من الأعباء في سبيل أن تصون حرمة لقاءاتهما، وكان يزداد حباً لها بسبب لامبالاتها ذات المظهر البريء ومزاجها الرائق على نحو لا يعرف الكلل على ما يبدو . ولم يكن في وسعه أن يقول ما هو السبب، بيد أنها كانت تبدو بالنسبة إليه فتاة لن تعرف الغيرة أبداً . ومن باب المجازفة بإثارة ابتسامة ساخرة نوعاً ما لدى القارئ يمكنني أن أؤكد أنه فيما يتعلق بالنساء اللواتي أثرن اهتمامه حتى الآن كان يبدو لوينتربورن، مراراً وتكراراً، أنه من الممكن، تحت وطأة احتمالات معينة، أن يخاف ـــ يخاف حرفياً ـــ من هؤلاء السيدات . وكان ينتابه إحساس ممتع بأنه لا يتعين عليه أبداً أن يخاف من ديزي ملر . ويجب أن نضيف أن هذه العاطفة برمتها ما كانت لترضي ديزي . وكان قد ترسخ في إيمانه، أو بالأحرى في إدراكه، أنها سوف تتكشف عن فتاة غِرَّة خفيفة للغاية .

بَيْدَ أنّها كانت على قدر كبير، وبوضوح، من الاهتمام بجيوفانيللي . كانت تنظر إليه كلما تحدث، وكانت دائماً تأمره أن يقوم بهذا العمل أو ذاك، وكانت « تمازحه » باستمرار وتسيء معاملته .

وكانت تبدو وقد نسيت تماماً أن وينتربورن كان قد قال أيّ شيء من شأنه أن

يُكَدِّرَها في حفلة السيدة ووكر البسيطة .

في أصيل يوم من أيام الآحاد، وكان قد ذهب مع عمته إلى كنيسة القديس بطرس، رأى وينتربورن ديزي وهي تتسكع في الكنيسة الكبيرة بصحبة جيوفانيللي المحتوم .

ولفت انتباهَ السيدة كوستيللو الآن الى الفتاة الشابة وفارسها، فنظرت هذه السيدة اليهما لحظة عبر نظارتها، ثم قالت :

ـــ إنَّ هذا هو ما يجعلك شديد الكآبة هذه الأيام، أليس كذلك ؟؟

قال الشاب :

ـــ لاعلم لي بأنني كنت كئيباً .

ـــ أنت مشغول البال إلى حد كبير . إنك تفكر في أمر ما .

سألها قائلاً :

ـــ وما هو هذا الأمر الذي تتهمينني بالتفكير فيه ؟؟؟

ـــ علاقة تلك السيدة الشابة، الآنسة بيكر، الآنسة تشاندلر، ما هو اسمها ؟؟؟ علاقة الآنسة ملر بأحمق الحلاق الصغير ذاك .

سألها وينتربورن :

ـــ هل تسمين قضية تجري بمثل هذه العلنية لغريبة علاقة ؟؟؟

قالت السيدة كوستيللو :

ـــ تلك حماقتهما وليست ميزتهما .

أجب وينتربورن بشيء من الكآبة التي ألحت عمته إليها :

ـــ كلا . لاأعتقد أنَّ ثمة ما يمكن أن يسمى علاقة .

ـــ سمعت أناساً كثيرين يتحدثون عن ذلك . يقولون أنها مشغوفة به تماماً .

قال، وينة بورن :

ـــ إنهما حميان بالتأكيد .

وتفحصت السيدة كوستيللو هذا الثاني مرة أخرى بأداتها البصرية، وقالت :

ـــ إنه وسيم للغاية ، ويرى المرء ذلك بسهولة . إنها تظنه أكثر الرجال أناقة في العالم، وأكثر السادة لطفاً . لم تر قط من يضارعه، وهو أفضل من المُرافق حتى . ومن المحتمل أن يكون المرافق هو الذي قدَّمه إليها ، وإذا أفلح في الزواج من الفتاة الشابة فسوف يحظى المرافق بعمولة فخمة .

قال وينتربورن :

ـــ لاأعتقد أنها تفكر في الزواج منه، ولا أعتقد أنه يأمل أن يتزوجها .

ـــ يمكنك أن تتيقن من أنها لاتفكر في شيء . إنها تواصل الاستمتاع يوماً بعد يوم، وساعة إثر ساعة، كما كانوا يفعلون في العصر الذهبي . لاأستطيع أن أتصور ما هو أكثر ابتذالاً من ذلك .

وأردفت السيدة كوستيللو قائلةً :

ـــ وكن على ثقة من أنها قد تخبرك في أية لحظة بأنها مخطوبة .

قال وينتربورن :

ـــ أعتقد أن ذلك أكثر مما يتوقع جيوفانيللي .

ـــ من هو جيوفانيللي ؟؟

ـــ الإيطالي الصغير . لقد سألتُ عنه وحصلت على بعض المعلومات . إنه على ما يظهر رجل صغير محترم تماماً، وأعتقد أنه، على نطاق صغير، الفارس المدافع عن حماها . بَيْدَ أنه لاينشط في ما يسمى بالدوائر الأولى . وأعتقد أنه ليس من المستبعد على الإطلاق فعلاً أن يكون المرافق هو الذي قام بتقديمه . إنه مفتون كما هو واضح، وإلى حد كبير، بلآنسة ملر . وإذا كانت تخاله أجمل رجل في العالم فإنه، من ناحيته، لم يجد نفسه قط على احتكاك شخصي بمثل هذه الفخامة، بمثل هذا الثراء، بمثل هذا الغلاء، كما هي عليه هذه السيدة الشابة . وعلاوة على ذلك، يجب أن تبدو بالنسبة له جميلة وممتعة على نحو رائع . وأنا أشك إلى حد ما فيما إذا كان يحلم أن

يتزوجها . لابد وأنَّ ذلك يتراءى له توفيقاً لايمكن أن يحدث على الإطلاق . ليس لديه ما يقدمه سوى وجهه الجميل، وثمة رجل ثري يدعى السيد ملر في أرض الدولارات الغامضة . إنَّ جيوفانيللي يدرك أنه لايحمل لقباً يقدمه، وليته كان مجرد كونت أو مركيز !.. يتعين عليه أن يتعجَّب لِحظِّهِ على الطريقة التي فهموه بها .

قالت السيدة كوستيللو :

ــ إنه يعلل ذلك بوجهه الوسيم، ويخال الآنسة ملر شابة تفوق نزواتها .

فتابع وينتربورن كلامه قائلاً :

ــ إنه لمن الصحيح إلى حد بعيد أن ديزي وأمها لم ترتقيا بعد إلى تلك المرحلة من ...... ماذا سأدعوها ؟؟ من الثقافة التي تبدأعندهافكرة الإمساك بكونت أو مركيز . أعتقد أنهما غير مؤهلتين عقلياً لتلك الفكرة .

قالت السيدة كوستيللو :

ــ آه !... ولكن الفارس لا يستطيع أن يعتقد ذلك .

وفيما يتعلق بالمراقبة التي أثارتها « علاقة » ديزي جمع وينتربورن في ذلك اليوم دليلاً كافياً في كنيسة القديس بطرس . جاءت دزينة من المستعمِرات الأمريكيات الموجودات في روما لكي يتحدثن مع السيدة كوستيللو التي كانت تجلس على كرسي خفيض قابل للحمل عند قاعدة أحد الأعمدة الكبيرة . كانت الصلاة المسائية تتواصل في ترانيم رائعة وألحان أرغن في الجوقة القريبة، وقيل في هذه الأثناء، بين السيدة كوستيللو وبين صديقاتها، الشيء الكثير عن الآنسة ملر الصغيرة المسكينة التي « تمادت إلى أبعد حد » فعلاً .

لم يكن وينتربورن مسروراً بما سمعه، بيد أنه عندما شاهد ديزي، لدى خروجه إلى درجات الكنيسة الكبيرة، وهي تنبثق أمامه وتركب عربة مكشوفة مع شريكها وتدور عبر شوارع روما الانتقادية، لم يستطع أن ينكر أمام نفسه أنها كانت تتمادى جداً في الواقع . شعر بالأسف الشديد من أجلها، ولم يكن ذلك من جراء اعتقاده

بأنها فقدت رأسها، بل لأنه كان من المؤلم أن يسمع المرء شيئاً كثيراً، كان جميلاً وطبيعياً وغير مصون، يُعزى لمكان سوقي بين طبقات الاختلال العقلي . قام بعدئذ بمحاولة التلميح للسيدة ملر . وذات يوم قابل صديقاً في « الكورسو »، وكان سائحاً مثله، وقد خرج لتوه من قصر « دوريا »، حيث كان يتمشى في البهو الجميل ذي الأعمدة . تحدث صديقه لحظة عن لوحة « إينوقنتيوس العاشر »(*) الفخمة التي رسمها « فالاسكيز » والمعلقة في إحدى حجرات القصر، ثم قال :

ــ وفي الحجرة نفسها، بالمناسبة، سَرَّني أن أتأمل لوحة من نوع آخر : تلك الفتاة الأمريكية الجميلة ــ والتي كانت أجمل من أيّ وقت مضى ــ كانت جالسة مع رفيق في الركن المنعزل الذي كان يحتفظ فيه باللوحة البابوية العظيمة . سأله وينتربورن قائلاً :

ــ ومن كان رفيقها ؟؟

ــ إيطالي صغير في عروة سترته باقة أزهار . الفتاة جميلة على نحو يَسُرُّ الناظرين، بَيْدَ أنني كنت أعتقد أنني فهمتُ منك في ذلك اليوم أنها كانت شابة من خير العالَمين .

أجاب وينتربورن :

ــ وإنها لكذلك !..

وعندما أكَّدَ لنفسهِ أنَّ مُخْبِرَهُ كان قد رأى ديزي ورفيقها قبل خمس دقائق فحسب، قفز إلى إحدى العربات، ومضى ليزور السيدة ملر . كانت في مقرها، ولكنها اعتذرت له عن استقبالها إيه في غياب ديزي . قالت السيدة ملر :

ــ لقد خرجت مع السيد جيوفانيللي إلى أحد الأمكنة . وهي دائماً تخرج مع السيد جيوفانيللي .

قال وينتربورن :

(*) إينوقنتيوس العاشر : أحد بابوات الكنيسة (1644 ــ 1655) . المترجم .

ـــ لقد لاحظتُ أنهما حميان للغاية .

قالت السيدة ملر :

ـــ أوه !.. يبدو الأمر وكأن أحدهما لايستطيع العيش بدون الآخر !.. حسناً إنه سيد حقيقي على أية حال . وأنا لاأفتأ أقول لديزي أنها مخطوبة !..

ـــ وماذا تقول ديزي ؟؟

استأنفت هذه الوالدة النزيهة كلامها قائلة :

ـــ أوه . تقول أنها غير مخطوبة، ولكنها مع ذلك قد تكون مخطوبة !.. وهي تتصرف وكأنها كذلك .

ولكنني جعلت السيد جيوفانيللي يعطيني وعداً بأن يخبرني إذا لم تتصرف كذلك . ويتحتم علي أن أكتب إلى السيد ملر بهذا الصدد . ألا يتحتم عليك ذلك ؟؟؟

أجاب وينتربورن أنه يتحتم عليه ذلك بالتأكيد، وقد صعقته الحالة العقلية لأم ديزي إذ لم يسبق لها مثيل في سجلات اليقظة الأبوية إلى درجة دفعته الى التخلي عن محاولة تحذيرها لأن ذلك لايمتُّ الى الموضوع بصلة على الإطلاق .

بعد ذلك، لم تعد ديزي تتواجد في المقر أبداً، وتوقف وينتربورن عن مقابلتها في منازل معارفهما المشتركين لأن هؤلاء الناس الدهاة، كما أدرك، كانوا قد عقدوا العزم تماماً على أنها كانت توغل في التمادي . وتوقفوا عن دعوتها، وأعلنوا أنهم كانوا يرغبون في أن يعبِّروا للأوروبيين المراقبين عن الحقيقة العظيمة التي مفادها أن سلوك الآنسة ديزي ملر، وإنْ كانت سيدة أمريكية شابة، لايمثل الأمريكيين، وأن أبناء وطنها يعتبرونها نشازاً . وتساءل وينتربورن عن شعورها إزاء جميع الأكتاف الباردة التي كانت تدار لها، وكان يزعجه أحياناً أن يشك في أنها لم تكن تشعر بشئ على الإطلاق . كان يقول في قرارة نفسه أنها أسخف وأكثر طيشاً، وأقل تربية وأشبب عاطفة وأضيق أفقاً من أن تفكر في نبذ المجتمع لها، أو أن تدرك ذلك .

وكان يعتقد في لحظات أخرى أنها كانت تحمل في كيانها الصغير الأنيق اللامسؤول وعياً عاطفياً متحدياً ومراقباً تماماً للانطباع الذي تخلفه . وسأل نفسه فيما إذا كان تحدّي ديزي ناجماً عن وعي بالبراءة، أم عن كونها في الأساس إنسانة شابة من الطبقة المستهترة . وينبغي الاعتراف أنَّ شَدَّ النفس إلى اعتقاد واحد « ببراءة » ديزي كان يبدو لوينتربورن باطراد ضرباً من الكياسة الواهية . وكما أتيح لي أن أذكر منذ قليل، كان غاضباً لأنه وجد نفسه مرغماً على الجدال بصدد هذه السيدة الشابة، وكان ساخطاً لافتقاره الى اليقين الغريزي لمعرفة إلى أي حد كانت نزواتها وطنية شاملة وإلى أيّ حَدٍّ كانت شخصية الطابع . على أية حال افتقدها إلى حد ما في كل من وجهتي النظر المذكورتين، وقد فات الأوان . لقد كانت مشغوفة بالسيد جيوفانيللي .

بعد بضعة أيام من مقابلته القصيرة مع أمها، صادفها في ذلك المقام الجميل الذي يتكون من الخرائب المزهرة والمعروف باسم قصر القياصرة . كان الربيع الروماني المبكر قد ملأ الهواء بالزهر والعطر، وكان سطح « البالاتين » الوعر ملفّعاً بالنّبتِ الأخضر الطريّ . كانت ديزي تتمشى على طول ذروة إحدى أكوام الخرائب العظيمة تلك والتي كانت مُطَوَّقة بالرخام الطحلبي ومُرَصَّفَةً بالكتابات التذكارية . وبدا له أن روما لم تكن جميلة قط إلى الحد الذي كانت عليه عندئذ . وقف يجيل الطرف في الانسجام الفاتن بين الخط واللون المحيطين بالمدينة عن بعد، ويستنشق الروائح الرطبة الناعمة، ويشعر بأن حداثة السنة وقِدَمَ المكان كانا يعيدان تأكيد نفسيهما في التحام غامض . وبدا له أيضاً أن ديزي لم تبد من قبل بهذا الجمال، بَيْدَ أن هذه كانت إحدى ملاحظاته كلما قابلها . كان جيوفانيللي إلى جانبها، وكان جيوفانيللي أيضاً يكتسي بمظهر متألق هادئ غير مألوف . قالت ديزي :

ـــ حسناً . إني لأعتقد أنك تشعر بالوحشة !..

سألها وينتربورن قائلا :

ـــ بالوحشة ؟؟؟

ـــ أنت دائماً تتجول بمفردك . ألاَ تستطيع الحصول على أيّ شخص ليتنزه معك ؟؟؟

قال وينتربورن :

ـــ لست محظوظاً جداً كرفيقك .

كان جيوفانيللي منذ البداية قد عامل وينتربورن بتهذيب مميز، فأصغى إلى ملاحظاته بسيماء من يراعي مشاعر الآخرين، وضحك لمزاحه بطريقة حريصة على الشكليات، وبدا ميّالاً الى أن يثبت في اعتقاده أن وينتربورن كان يعلوه مرتبة . ولم يكن يحمل نفسه على الإطلاق مَحْمَل متودد غيور . كان، على ما هو واضح، يتمتع بقدر كبير من الذوق، ولم يكن ليعترض إذا توقعتَ منه قليلاً من الاتضاع . بل كان يبدو لوينتربورن أحياناً أنّ جيوفانيللي سوف يجد راحة فكرية في كونه قادراً على امتلاكِ تفاهم خصوصي معه، كأن يقول له كرجل عبقري أنه، حفظك الله، كان يعرف أية درجة استثنائية كانت هذه السيدة الشابة، وأنه لم يكن ليخدع نفسه بآمال وهمية ـــ أو على الأقل وهمية جداً ـــ بالزواج والدولارات . وفي هذه المناسبة تمشى مبتعداً عن رفيقته ليقطف غُصَيْناً من زهر اللوز تَدَبَّرَ مهمة وضعه في عروة سترته . قالت ديزي وهي تراقب جيوفانيللي :

ـــ أعرف لماذا تقول ذلك .لأنك تعتقد أنني أتجول كثيراً جداً معه !..

وأشارت برأسها إلى مرافقها . قال وينتربورن :

ـــ إنَّ كل شخص يعتقد ذلك إذا كان يهمك أن تعرفي .

هتفت ديزي على نحو جاد :

ـــ طبعاً يهمني أن أعرف !.. ولكنني لاأصدق ذلك . إنهم يتظاهرون بالصدمة فحسب . وهم في الواقع لايهتمون مثقال ذرة بما أفعله . وعلاوة على ذلك، فأنا لاأتجول كثيراً جداً .

ـــ أعتقد أنك سوف تجدين أنهم يهتمون فعلاً . سوف يُبْدون ذلك على نحو بغيض .

نظرت ديزي إليه لحظة، ثم قالت :

ـــ كيف... على نحو بغيض ؟؟؟

سألها وينتربورن قائلاً :

ـــ ألم تلاحظي أيَّ شيء ؟؟؟

ـــ لقد لاحظتك أنتَ، ولكنني لاحظتُ أنكَ كنت متيبِّســاً كمظلة عندما رأيتك أول مرة .

قال وينتربورن وهو يبتسم :

ـــ سوف تكتشفين أنني لست متيبِّساً جداً كعدد من الناس الآخرين .

ـــ كيف سأكتشف ذلك ؟؟

ـــ بالذهاب لمقابلة الآخرين .

ـــ ماذا سيفعلون لي ؟؟

ـــ سوف يديرون لك كتفاً بارداً . هل تعرفين ماذا يعني ذلك ؟؟؟

كانت ديزي تنظر إليه بتركيز . وبدأت تَتَلوَّن . قالت :

ـــ هل تقصد كما فعلت السيدة ووكر في تلك الليلة ؟؟؟

قال وينتربورن :

ـــ بالضبط .

ابتعدت بنظرها إلى جيوفانيللي الذي كان يُزَيِّنُ نفسه بغض اللوز، ثم قالت عندما نظرت ثانية إلى وينتربورن :

ـــ لاأعتقد أنك سوف تسمح للناس أن يكونوا قساة هكذا !..

سألها قائلاً :

ـــ وكيف لي أن أمنعهم ؟؟؟

ــ أعتقد أنك ستقول شيئاً ما .

ــ إنني فعلاً أقول شيئاً ما .

ثم توقف لحظة وتابع قائلاً :

ــ أقول أن أمك تخبرني أنها تعتقد أنك مخطوبة .

قالت ديزي بكل بساطة :

ــ إنها تعتقد ذلك في الواقع .

فبدأ وينتربورن يضحك . سألها :

ــ وهل يصدق راندولف ذلك ؟؟؟

قالت ديزي :

ــ أظن أن راندولف لايصدق أيَّ شيء .

ودفع نزوع راندولف إلى الشك وينتربورن إلى المزيد من المرح الصاخب، ولاحظ أن جيوفانيللي كان عائداً إليهما . وعندما لاحظت ديزي ذلك أيضاً وَجَّهتْ نفسها إلى مواطِنِها وقالت :

ــ بما أنك ذكرت ذلك، فأنا مخطوبة .

نظر وينتربورن إليها . كان قد توقف عن الضحك، فأردفت قائلةً :

ــ ألا تصدق ذلك ؟؟؟

فصمت لحظة، ثم قال بعد ذلك :

ــ أجل، أصدق ذلك !..

أجابت :

ــ أوه . كلا . أنت لاتصدق ذلك . حسناً، أنا لست مخطوبة إذن !..

كانت الفتاة الشابة ودليلها السياحي في طريقهما إلى بوابة السياج، لذا فإنَّ وينتربورن، الذي كان قد دَخَلَ منذ فترة وجيزة فحسب، وَدَّعَهُما الآن وانصرف .

بعد أسبوع ذهب ليتناول العشاء في الفيلاّ الجميلة القائمة على هضبة « كيليان »،

وعندما وصل صرف العربة التي استأجرها . كان المساء فاتناً فوعد نفسه أن يرضيها بالمشي إلى البيت تحت قنطرة « كونستانتين » بحذاء معالم الساحة التي لم تكن مُنارَة على نحو كاف . كان ثمة قمر باهت في السماء، ولم يكن إشعاعه متألقاً بل كان محجوباً خلف ستارة رقيقة من الغيوم راحت تنشره على نحو متساو . وعندما اقترب وينتربورن من دائرة مُدرَّجِ روما المعتمة لدى عودته من الفيلاّ (وكانت الساعة الحادية عشرة ليلاً) خطر له، كعاشق للمناظر المثيرة، أنَّ داخل المدرج، وفي ضوء القمر الباهت، سيكون جديراً بإلقاء نظرة فاستدار جانباً ومشى إلى إحدى القناطر المهجورة وكانت تقف على مقربة منها، كما لاحظ، عربة مكشوفة وهي واحدة من العربات الرومانية الصغيرة . ثم تجاوزها إلى الداخل بين ظلال المبنى الكبير الكهفية وظهر في الساحة الوسطى الواضحة والساكنة . لم يسبق أن بدا له المكان من قبل أكثر تأثيراً . كان نصف المدرج الهائل غارقاً في ظلام دامس، ونصفه الآخر نائماً في الغسق المضيء . وعندما وقف هناك بدأ يغمغم أبيات « بايرون » الشهيرة من قصيدة « مانفريد »، بَيْدَ أنه وقبل أن يفرغ منها تذكر أنه إذا كان الشعراء ينصحون بالتأملات الليلية في مدرج روما القديم فإنَّ الأطباء يستنكرون ذلك .

كان الجو التاريخي موجوداً في ذلك المكان بالتأكيد، إلا أن الجو التاريخي من وجهة النظر العلمية لم يكن أكثر من جو خانق رديء . ومشى وينتربورن إلى وسط الساحة ليلقي المزيد من النظرة الشاملة وفي نيته أن يعود أدراجه بعد ذلك على جناح السرعة . كان الصليب الكبير الموجود في الوسط مغطى بالظل، ولم يتبيَّنهُ بوضوح إلا عندما اقترب منه . ثم رأى ثمة شخصين جالسين على الدرجات الخفيضة التي تشكل قاعدته . وكان أحد هذين الشخصين امرأة جالسة فيما كان رفيقها ينتصب واقفاً أمامها .

وتناهى إليه الآن وقع صوت المرأة بوضوح عبر هواء الليل الدافئ وهي تقول :

ـــ حسناً . إنه ينظر إلينا كما يمكن أن يكون أحد الأسود أو النمور القديمة قد نظر

إلى الشهداء المسيحيين !..

كانت هذه هي الكلمات التي سمعها بلهجة الآنسة ديزي ملر المألوفة .

أجاب جيوفانيللي الحاذق :

ـــ دعينا نأمل ألا يكون جائعاً للغاية . سوف يتحتم عليه أن يأكلني أولاً، أما أنت فسوف تكونين بمثابة حلوى ما بعد الطعام !..

توقف وينتربورن بنوع من الرعب، وينبغي أن نضيف بنوع من الارتياح . وبدا وكأن إنارة مفاجئة قد أومضت على الغموض الذي يغلف سلوك ديزي، وأصبح من السهل حل اللغز .

كانت سيدة شابة لا يحتاج الرجل بعد الآن إلى تحمل مشاق احترامها . وقف هناك وهو ينظر إليها، وإلى مرافقها، ولم يكن يفكر، على الرغم من أنه كان يراهما على نحو غير واضح المعالم، في أنه يمكن أن يكون هو نفسه مرئياً على نحو ساطع . وأحس بالحنق على نفسه لأنه أقلق نفسه كثيراً فيما يتعلق بالطريقة المثلى لاحترام الآنسة ديزي ملر . ثم، وفيما كان على وشك أن يتقدم مرة أخرى، كبح جماح نفسه، لا بدافع من خشيته في أن يحيق ظلماً بها، بل لإحساسه بخطورة أن يبدو، على نحو غير لائق، مبتهجاً بردة فعله المفاجئة من وجهة نظر الانتقاد المتروّي . واستدار مبتعداً باتجاه مدخل المكان، إلاّ أنه ما إن قام بذلك حتى سمع ديزي تتحدث مرة أخرى قائلة :

ـــ عجباً !.. كان هذا هو السيد وينتربورن ! لقد رآني .... وهو يتجاهلني !!..

أية شريرة صغيرة وذكية كانت، وكم لعبت بذكاء دور البراءة المظلومة !.. بيد أنه ما كان ليتجاهلها .

وتقدم وينتربورن إلى الأمام مرة أخرى، ومضى باتجاه الصليب الكبير . كانت ديزي قد نهضت . ورفع جيوفانيللي قبعته . كان وينتربورن قد بدأ يفكر الآن، ببساطة ومن وجهة النظر الصحية، في جنون فتاة شابة مرهفة الإحساس تنفق المساء

في التسكع في عش الملاريا هذا . وماذا لو كانت شريرة صغيرة ذكية ؟؟؟ إن ذلك لا يشكل سبباً لموتها بسبب الفساد .

سألهما بقسوة تقريباً :

ـــ منذ متى وأنتما هنا ؟؟؟

فنظرت ديزي إليه لحظة، وقد بدت جميلة في ضوء القمر الذي يزيد المرء جاذبية، ثم أجابت برقّة :

ـــ طوال المساء . لم أرَ قط ما يضارع هذا الجمال .

قال وينتربورن :

ـــ أخشى ألا تعتقدي أن الحمّى الرومانية جميلة للغاية . وهذه هي الطريقة التي يصاب فيها الناس بها .

وأضاف وهو يلتفت إلى جيوفانيللي :

ـــ إنني أستغرب أن يتعين عليك، وأنت ابن روما، أن تؤيد مثل هذه الحماقة المريعة .

قال ابن البلد الوسيم :

ـــ آه . من جهتي فأنا لست خائفاً .

ـــ ولست أنا خائفاً .... عليك !.. إنني أتحدث عن هذه السيدة الشابة .

رفع جيوفانيللي حاجبيه الجميلين وأظهر أسنانه اللامعة، بيد أنه تلقّى توبيخ وينتربورن بانصياع . قال :

ـــ لقد أخبرت السنيورة أن هذه حماقة خطيرة، ولكن متى كانت السنيورة متبصرة في عواقب الأمور ؟؟؟

وصرّحت السنيورة قائلة :

ـــ لم أمرض قطُّ ولا أنوي أن أمرض . ولا أبدو ميالة إلى ذلك كثيراً، ولكنني موفورة الصحة !.. كنت قد عقدت العزم على رؤية المدرج في ضوء القمر . وما

كنت لأودّ الذهاب إلى البيت دون أن أرى ذلك . وقد قضينا أمتع وقت . أليس كذلك أيها السيد جيوفانيللي ؟؟ إذا كان ثمة خطورة فإن في مقدور يوجينيو أن يعطيني بعض الأقراص . لقد حصل على بعض الأقراص الرائعة .

قال وينتربورن :

ــ يتحتم عليّ أن أنصحك بالانطلاق إلى الفندق بأسرع ما يمكن لتتناولي قرصاً .

أجاب جيوفانيللي :

ــ ما تقوله هو عين الحكمة . سأذهب وأتأكد من وجود العربة .

وانطلق قدماً بسرعة . وتبعته ديزي مع وينتربورن . وظل وينتربورن ينظر إليها . لم تبدُ مرتبكة على الأقل، ولم ينبس هو ببنت شفة . ثرثرت ديزي عن جمال المكان، وهتفت قائلة :

ــ حسناً . لقد رأيت المدرج الروماني القديم في ضوء القمر !... وذلك عمل لا بأس به .

ثم، عندما لاحظت صمت وينتربورن، سألته لمَ لمْ يتكلم . لم يجب بل بدأ يضحك فحسب . ومرّا تحت إحدى القناطر المظلمة، وكان جيوفانيللي أمامهما في العربة . وهنا توقفت ديزي لحظة وهي تنظر إلى الأمريكي الشاب وسألته :

ــ هل اعتقدت في ذلك اليوم أنني كنت مخطوبة ؟؟

قال وينتربورن وهو لا يزال يضحك :

ــ إن ما اعتقدته في ذلك اليوم لا يهم .

ــ حسناً، وماذا تعتقد الآن ؟؟

ــ أعتقد أن كونك مخطوبة أو غير مخطوبة لا يشكل إلا فارقاً ضئيلاً .

وشعر بعيني الفتاة الشابة الجميلتين، وقد استقرتا عليه عبر ظلام القنطرة الدامس . كانت ستجيب على ما يبدو، إلا أن جيوفانيللي استحثها قائلاً :

ــ أسرعي، أسرعي، إذا استقلينا العربة قبل منتصف الليل فسنكون في مأمن تماماً .

اتخذت ديزي مقعدها في العربة، ووضع الإيطالي المحظوظ نفسه بجانبها . قال وينتربورن وهو يرفع قبعته :

ــ لا تنسي أقراص يوجينيو !..

قالت ديزي بنبرة غريبة قليلاً :

ــ إنني لا أبالي سواء أصبتُ بالحمى الرومانية أم لا !..

وهنا فرقع الحوذي بسوطه، واندفعوا فوق أرضية الشارع التي كانت مرصوفة بأجزاء متقطعة .

ولم يذكر وينتربورن ــ إنصافاً له إذا جاز التعبير ــ لأي شخص أنه كان قد صادف الآنسة ملر في منتصف الليل في المدرج الروماني القديم بصحبة رجل، ولكن مع ذلك، وبعد يومين كان كل فرد في الدائرة الأمريكية الصغيرة قد عرف حقيقة أنها كانت هناك تحت هذه الظروف وعلّق عليها وفقاً لذلك .

وفكر وينتربورن في أنهم قد عرفوا ذلك طبعاً في الفندق، وأن تبادلاً بالنُكت قد تم بين البواب وبين سائق العربة بعد عودة ديزي . ولكن الشاب أدرك في اللحظة نفسها أن « تكلُّم » الخدم ذوي التفكير المنحط عن العابثة الأُمريكية الصغيرة لم يعد يشكل بالنسبة له أسفاً جدياً .

وكان لدى هؤلاء الناس، بعد يوم أو يومين، معلومات خطيرة قيد الإدلاء : كانت العابثة الأمريكية الصغيرة مريضة على نحو ينذر بالخطورة .

وذهب وينتربورن على الفور إلى الفندق عندما تناهت إليه الإشاعة، وذلك للحصول على المزيد من الأنباء، ووجد أن اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء المحسنين قد سبقوه، وأن راندولف استضافهم في صالون السيدة ملر . قال راندولف :

ــ إن التجول في الليل هو الذي أدى إلى مرضها، وهي دائماً تتجول في الليل .

ولا أعتقد أنها كانت تريد ذلك . إنه ظلام مزعج للغاية . ليس في وسعك أن ترى أي شيء هنا في الليل، إلا حيث يكون القمر موجوداً . في أمريكا ثمة قمر دائماً !..

ولم تظهر السيدة ملر . كانت الآن، على الأقل، تمُنُّ على ابنتها بمَزِيَّةِ صحبتها . وكان من الواضح أن ديزي مريضة على نحو خطير .

وكان وينتربورن غالباً ما يذهب للسؤال عن أخبارها، وحظيَ مرة بالسيدة ملر التي كانت هادئة للغاية ـــ مما أثار دهشته في الواقع ـــ على الرغم من ذعرها العميق . وكانت، على ما بدا، ممرضــة من أكفأ وأعقل ما يكون . وتحدثت عن الطبيب ديفيز قدراً كثيراً، ولكنَّ وينتربورن وفاها حقها من الإطراء عندما قال في قرارة نفسه أنها لم تكن، مع ذلك، مغَفَّلة وسخيفة جداً . قالت له :

ـــ لقد تحدثتْ ديزي عنك منذ عهد قريب . إنها في نصف ما تحكيه لا تعرف ما تقول، ولكنها في ذلك الوقت كانت تعرف على ما أعتقد . لقد بلَّغتْني رسالة طلبت أن أنقلها إليك . طلبت مني أن أخبركَ أنها لم تُخْطَبْ قط لذلك الإيطالي الوسيم . وأنا متأكدة من أنني مسرورة للغاية . ولم يقترب السيد جيوفانيللي منا منذ إصابتها بالمرض . كنت أعتقد أنه يتحلى بكثير من مزايا السيد، بيد أني لاأسمي ذلك تهذيباً كبيراً !.. لقد أخبَرَتْني إحدى السيدات أنه كان يخشى أن أكون غاضبة منه لأنه ياخذ ديزي للتجول في الليل . أنا غاضبة منه في الواقع، ولكنني أعتقد أنه يعرف أني سيدة . سأستنكف عن توبيخه . على أية حال، تقول ديزي أنها غير مخطوبة، ولا أعرف لماذا كانت تريدك أن تعرف ذلك، ولكنها قالت لي ثلاث مرات : « تذكري أن تخبري السيد وينتربورن بذلك » . ثم طلبت مني أن أسألك فيما إذا كنت تذكر الفترة التي ذهبتما فيها إلى تلك القلعة في سويسرا . ولكنني قلت لها أنني لن أنقل أية رسالة كهذه . لكنْ، إذا لم تكن مخطوبة فأنا مسرورة بالتأكيد لمعرفة ذلك .

إلاَّ أنَّ الأمر، وكما كان وينتربورن قد قال، لم يُشَكِّلْ إلاَّ فارقاً ضئيلاً .

وبعد أسبوع من ذلك ماتت الفتاة المسكينة .

كانت حالة مريعة من حالات الحمى . وكان ضريح ديزي في مقبرة البروتستانت الصغيرة، في ركن من أركان سور روما الإمبراطورية، تحت أشجار السرو وأزهار الربيع الكثيفة . وبقربه وقف وينتربورن هناك مع عدد من النادبين الآخرين، وهو عدد أضخم مما يمكن أن تكون الفضيحة، التي أثارتها سيرة السيدة الشابة ، قد جعلتك تتوقعه . وإلى جانبه وقف جيوفانيللي الذي كان لا يفتأ يزداد اقتراباً منه قبل أن يستدير وينتربورن مبتعداً . كان جيوفانيللي شديد الشحوب، ولم تكن ثمة زهرة فيعروة سترته في هذه المناسبة . كان يبدو أنه يود أن يقول شيئاً . وأخيراً قال :

ــ كانت أجمل شابة رأيتها في حياتي، وأكثرهن وداً .

ثم أضاف بعد لحظة :

ــ وكانت أكثرهن براءة .

نظر وينتربورن إليه، وكرَّر كلماته الآن :

ــ وأكثرهن براءة ؟؟

ــ أكثرهن براءة !..

وشعر وينتربورن بالألم والغضب، فسأله قائلاً :

ــ لماذا، بحق الشيطان، أخَذْتَها إلى ذلك المكان المميت ؟؟

كان تهذيب السيد جيوفانيللي هادئاً على نحو جَليّ . نظر إلى الأرض لحظة، ثم قال :

ــ فيما يتعلق بي، لم أكن خائفاً . وكانت تريد الذهاب .

فصرخ وينتربورن قائلاً :

ــ لم يكن ذلك سبباً !..

وخفض الروماني الرقيق عينيه مرة أخرى وقال :

ــ لو بَقِيَتْ على قيد الحياة لَمَا حَظِيتُ بشيء . ما كانت لتتزوجني . أنا متأكد من ذلك .

ــ ما كانت لتتزوجك ؟؟؟

ــ كنت آمل ذلك لفترة . ولكن، كلاً، أنا متأكد من ذلك .

وأصغى وينتربورن إليه . وقف يحدق في النتوء الرطب الكائن بين أزهار الربيع النيســانية . وعندما استدار ثانية كان السيد جيوفانيللي قد توارى بخطوته الخفيفة البطيئة .

وغادر وينتربورن روما مباشرة على وجه التقريب . بيد أنه في الصيف التالي قابل مرة أخرى عمتـه، السيدة كوستيـللو، في « فيفيـه » . وكان وينـتربورن في الفترة الفاصلة قد فكر كثيراً بديزي ملر وتصرفاتها المحيرة . وذات يوم تحدث مع عمته عنها، وقال أن ضميره كان مثقلاً لأنه ظلمها . قالت السيدة كوستيللو :

ــ أنا على يقين من أنني لاأعرف كيف أثَّرَ ظلمُكَ عليها !..

ــ لقد بعثتْ إليَّ برسالة قبل وفاتها لم أفهمها آنذاك، ولكنني فهمتها فيما بعد . إنها تقدّر احترام المرء حقَّ التقدير .

سألته السيدة كوستيللو :

ــ وهل تلك طريقة محتشمة للقول بأنها تبادل المرء عاطفته ؟؟

لم يُجِرْ وينتربورن جواباً على هذا السؤال، ولكنه قال الآن :

ــ كنت على حق في الملاحظة التي أبديتها الصيف الماضي . كان من المقدَّر عليَّ أن أرتكب خطأ .

لقد عشت فترة طويلة في البلاد الاجنبية .

مع ذلك، عاد ليعيش في جنيف حيث ظلَّتْ تَرِدُ منها تقارير متضاربة للغاية عن بواعث إقامته فيها : تقرير يفيد بأنه « يدرس » بجد، وتلميح إلى أنه شديد الاهتمام بسيدة أجنبية ذكية للغاية .

مطابع ألف باء - الأديب
دمشق - هاتف ٢٢١٧١١

من منشوراتنا

★ مدارات الشرق : ـ الأشرعة ـ بنات نعش
ـ نبيل سليمان ·

★ مقدمة الى العلوم الكونية الاسلامية :
ـ سيد حسين نصر ·

★ نحو ملحمة روائية عربية : محسن يوسف

★ الرواية والتاريخ :
ـ محمد جمال باروت ـ د. عبد الرزاق عيد

★ ملفات أدبية :
ـ غوركي ـ باسترناك ـ حمزاتوف

★ نحن والبيروستريكا : د. عبد الرزاق عيد

★ قصص قصيرة من السند : مجموعة مؤلفين

دار الحوار للنشر والتوزيع ـ سورية ـ اللاذقية
ص ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩

مطابع ألف باء ـ الأديب
دمشق ـ هاتف ٢٢١٧١١